المعرفة في التصور الإسلامي
مصادرها وخصائصها

بقلم

الأستاذ الدكتور

أحمد عبد الحميد الشاعر

أستاذ العقيدة والفلسفة

هذا البحث

هو الجزء الثاني والأخير من (المعرفة في التصور الإسلامي)

والذي نشر في جزوه الأول في العدد الحادي والعشرين

١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م



المعرفة وأهميتها :

أصبح من المؤكد أن الإنسان – بحكم دوافعه الذاتية والخارجية – ينشغل دوماً بالبحث عن معرفة كل ما يحيط به من أشياء ، وفي ذات نفسه أيضاً ، فيحاول – جيده – أن يتعرف عليها من حيث طبيعتها ، والعلة التي تحكمها ، والغاية منها .... الخ .

إن هذا الأمر الطبيعي أدى إلى تنوع المعارف التي نحصل عليها

سواء في مصدرها : حسية أم عقلية . فطرية أم مكتسبة . ربانية أو إنسانية .

وسواء في طبيعتها : جزئية أم كلية . عامة أم خاصة .

وسواء في قيمتها : ظنية أم يقينية أم احتمالية .

وسواء في ذاتها ونسبتها : مطلقة أم نسبية . أصلية أم فرعية .

بيد أنا حينما نطرح موضوع المعرفة للبحث والاستقصاء ، والفحص والتمحيص فإنه يصبح من الطبيعي أن تكون تلك المعرفة من نوع خاص جدير أن ينشغل به العلماء ، والمفكرون والحكماء " وما يعقلها إلا العالمون " .

من هنا كانت تلك التساؤلات التي تفرض نفسها :

ما المراد بتلك المعرفة ؟

وما أهميتها ؟ وما قيمتها ؟ وما حكم العلم بها ؟

وما مصادر تلك المعرفة ؟

وأين تلك المصادر من طبيعة الإنسان وتكوينه ؟ .... الخ ...

لبيان ذلك نقول وبالله التوفيق :

إن ذلك النوع من المعرفة التي يكرس له الباحثون جهدهم تعني به بما يسمي : المعرفة العليا ، أو حقيقة الحقائق ، أو الحقيقة المطلقة الخالدة التي تكمن وراء هذا الوجود ، ومنها يستمد كل موجود وجوده ، وتهيمن عليه خلقاً وإبداعاً ورعاية ، وحكماً وتدبيراً .

ويقال عنها : إنها البحث عن أسرار الوجود وعلله ، أو علم الأشياء بحقائقها ، كما تسمي الفلسفة العليا ، أو الفلسفة الأولي ، أو الميتافيزيقا .

إنها المسئول عنها دائماً ، من أين ؟ وإلي أين ؟ وكيف ؟ ولماذا ؟ أما قيمة تلك المعرفة وأهميتها فإنها تتعلق بقيمة موضوعها الذي هو الغاية القصوى منها – الحق تبارك وتعالي .

ذلك أن الإنسان قد خلق لغاية كبري هي عبادة الله تعالي – وحده لا شريك له – تحقيقاً لقوله تعالي : ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ** ﴾ [سورة الذاريات : ٥٦ : ٥٨] ، ومن ثم يصبح من البديهي أن يعشق البحث عنه ، ويشتاق إليه ، حيث يتعرف علي معبوده بحق ، ويعلم – بيقين – ما يليق بذاته القدسية من صفات الجلال والكمال.

بهذا جاءت الرسالات السماوية " ذلك أن الأنبياء " – عليهم السلام – دعوا الناس إلي عبادة الله أولاً بالقلب واللسان ، وعبادته متضمنة لمعرفته وذكره " (١) .

ويضيف ابن تيمية قائلاً :

" ففاتحة دعوة الرسل : الأمر بالعبادة . قال تعالي : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ**﴾ وقال رسول الله (ﷺ) " أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله . وأن محمداً عبده ورسوله " وذلك

---

١ – مجموع الفتاوي لشيخ الإسلام ابن تيمية ج ٢ كتاب توحيد الربوبية ص (١٥)

يتضمن الإقرار به ، وعبادته وحده ، فإن الإله هو المعبود – ولم يقل حتى يشهدوا ألا رب إلا الله . فإن اسم الله أدل على مقصود العبادة له . التي لها خلق الخلق ، وبها أمروا .

" كذلك قوله لمعاذ : إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله " وقال نوح عليه السلام "أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون " وكذلك الرسل في سورة الأعراف وغيرها" (١)

يريد – رحمه الله – ما جاء في سورة الأعراف بقوله تعالي عن نوح عليه السلام ﴿ **لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ** ﴾ (٢) .

وعن هود عليه السلام ﴿ **وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ** ﴾ (٣) .

وعن صالح عليه السلام ﴿ **وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ** ﴾ (٤).

وعن شعيب عليه السلام قوله : ﴿ **وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ** ﴾ (٥) .

كما يريد – رحمه الله بغير الأعراف الكثير من سورة القرآن الكريم التى ورد فيها بيان أول دعوة الأنبياء – عليهم السلام – مثل سورة هود ، وسورة الشعراء وغيرهما .

---

١ - نفسه ص (١٣ – ١٤) .
٢ - سورة الأعراف الآية رقم : (٥٩) .
٣ - سورة الأعراف الآية رقم : (٦٥) .
٤ - سورة الأعراف الآية رقم : (٧٣) .
٥ - سورة هود الآية رقم : (٨٤) .

على ضوء هذا وغيره يقرر شيخ الإسلام " أن أول الواجبات هو الإيمان بالله لا النظر " (١) .

بينما يري غيره من العلماء كالسنوسي – رحمه الله – أن أول واجب على المكلف هو النظر فيقول " جمهور الأئمة يرون وجوب النظر وتحريم الاقتصار على التقليد " .

ويوضح النظر بقوله : " حقيقة النظر : ترتيب أمور معلومة على وجه يؤدي إلي استعلام ما ليس بمعلوم . كذا عرفه البيضاوي " .

وبعد أن استعرض آراء العلماء في حكم النظر يقرر رأيه المختار مع التعليل فيقول " أخذت من هذه الأقوال : أن أول واجب هو النظر لتكرار الحديث على النظر في الكتاب والسنة حتى كأنه مقصد " .

وبناء على ذلك يؤكد السنوسي – رحمه الله – أن التقليد لا يكفي في العقائد . ويدعم هذا الرأي بقوله : " كل آية في القرآن ذامة التقليد ، وآمرة بالنظر والاعتبار . دليل على ذلك كقوله تعالى : ﴿ **قل انظروا** ﴾ ، وقوله جل وعلا : ﴿ **أولم يتفكروا** ﴾ وقوله سبحانه ﴿ **إن في خلق السموات والأرض** ﴾ .

والسنوسي – رحمه اله – يريد بآيات ذم التقليد أمثال قوله تعالي : ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ** ﴾ (سورة البقرة : ١٧٠) .

وكذلك قوله تعالي : ﴿ **وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ * قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ** ﴾ (سورة الزخرف : ٢٣ – ٢٤) .

---

١ – مجموع الفتاوي ج ٢ هامش ص (١) .

ثم يحذر السنوسي الإنسان من تأنيه في عدم مبادرته بالنظر حتى لا يفاجئه القدر ولا يتحقق له الإيمان . يقول " حذر – سبحانه – المتأني بالنظر بخوف قرب موته فيفوته النظر بتأنيه ، فيموت غير مؤمن عند بعضهم . فقال بعد قوله : ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللّهُ مِن شَيْءٍ ﴾ ﴿ وَأَنْ عَسَى أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ﴾ [الأعراف : ١٨٥] وإجماع الصحابة دليل على وجوب النظر ، فإنها لم تزل تذم التقليد ، وتحذر منه ، وهو قول شائع بينهم من غير أساسية ، وعناصر ذاتية في طبيعة الإنسان ، حيث إن هذه الطبيعة في أصل تكوينها وخلقها ترجع إلي قبضة من تراب الأرض ونفخة من روح الله تعالي : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِن طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ (سورة ص : ٧١ – ٧٢)

هناك – إذن – جانبان أساسيان في طبيعة الإنسان : أحدهما مادي والآخر روحي ، سبحان من ألف بينهما في وحدة متكاملة متناسقة مؤتلفة

وقد خلق الله الإنسان لرسالة كبري ، ومهمة عظمي في الحياة تتحقق منها غايات ثلاث :

الأولي : العبادة المطلقة والخالصة لله تعالي وحده لا شريك له .

﴿ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ (سورة الذاريات ٥٦ – ٥٨ ، مكية) .

الثانية : الخلافة عن الله في الأرض لينشر فيها العدل والأمن والطمأنينة والسلام .

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ (سورة البقرة : ٣٠ ، مدنية) .

الثالثة : عمارة الأرض ، واستغلال ما فيها من خيرات لصالح الإنسان والحياة .

﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ (سورة هود : ٦١ ، مكية) .

من هنا اقتضت حكمة الله تعالي أن يزود الإنسان بوسائل العلم والمعرفة التي تمكنه من أداء رسالته في الحياة .

ومن قبل هذه الأدوات والوسائل تكمن الدوافع الذاتية ، ثم تحيط به الدوافع الخارجية من كل مكان .

ولهذا تنوعت تلك الوسائل حسب طبيعة الإنسان فكان منها :

١ – **الحواس** : تلك المنافذ التي من خلالها ينفتح الإنسان على العالم الخارجي من حوله .

٢ – **العقل** : تلك الهبة الربانية التي بها يتمكن الإنسان من القدرة على الإدراك والتأمل والتفكير ، وغير ذلك من العمليات العقلية .

٣ – **البصيرة** : ذلك المنفذ الروحي الذي ينفتح من خلاله على الملأ الأعلى ، فينكشف له ما يشاء الله حسب تفضله ورضاه .

تأمل قوله تعالي : **﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾** (سورة النحل : ٧٨ ، مكية) .

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ (سورة المؤمنون : ٧٨ ، مكية) .

تلك هي الوسائل والأدوات التي مكن الله الإنسان بها من الوصول إلي المعرفة . ونحن مكلفون باستخدامها والمسئولية عنها ، بل هي مسئولة كذلك :

﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَـئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾ (سورة الإسراء : ٣٦ ، مكية) .

ولكن الناس إزاء هذه الوسائل مختلفون و " كل حزب بما لديهم فرحون "

فمن الناس من يقنع بالحواس وحدها ، ويثق كل الثقة بها ، ولا يلتفت إلي ما سواها.فلا يري في الوجود سوي هذا العالم المحسوس ، فكل موجود محسوس ، وغير المحسوس غير موجود ، وما لا يدركه الحس بذاته فغرض وجوده محال ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ (سورة الجاثية : ٢٤ ، مكية) .

ومن الناس من يقنع بالعقل وحده ، ولا يري فيما سواه بديلاً أو نصيراً ، فلا يلتفت إلي الحواس ، ولا يهتز لصوت الفطرة ، ولا يرعى جانب الروح والبصيرة في نفسه .

ومن الناس من لا يشفي غليله ، ولا يروي ظمأه سوي الإدراك البصيرى وحده بالمجاهدة النفسية ، والرياضة الروحية . أملاً في المعرفة اللدنية الربانية .

تلك صنوف البشر إزاء وسائل المعرفة وهي صنوف دائمة الوجود في كل أرض ، وكل عصر ، ولدي العامة والخاصة على السواء ... فأين منها التصور الإسلامي ؟ ... وبأي منها يمكن الوصول إلي المعرفة العليا التي نريدها ؟

أولاً : الإدراك الحسي

وظيفة الحواس :

إن الإدراك الحسي يعتمد على الحواس فهي المنافذ التي ينفذ من خلالها الإنسان على العالم الخارجي من حوله .

إنه يري الأشياء في صورها وألوانها وأحجامها .

وكذلك يلمسها في حرارتها وبرودتها وطراوتها وصلابتها . وكذلك يشم رائحتها الزكية والخبيثة ويتذوقها حلوة ومرة ، ومائعة ومزة ، ويسمع الأصوات من قريب أو بعيد ، قوية أو ضعيفة . حسنة أو قبيحة .. وهكذا .

هذه كلها معارف يستقيها المرء من خلال الحواس ، ولهذا فإن انعدام حاسة منها يؤدي بالضرورة إلي انعدام معرفة موضوعها .

غير أن الإنسان في تعامله مع الأشياء لا يقف عند حد المدركات الحسية فحسب بل ينزع بالضرورة إلي ما وراءها سمع صوتاً . فإن يدرك هذا الصوت ويتفحصه فيعرف أنه صوت إنسان أو حيوان ، فإذا كان لإنسان ... أدرك أنه صوت رجل أو امرأة أو طفل ، وإن كان صوت حيوان أدرك أنه زئير أسد ، أو صهيل حصان ، أو نهيق حمار ، أو صياح ديك .

هناك – إذن – علاقة مباشرة بين الإدراك والإحساس ... إذ الإدراك في جوهره استجابة لمؤثرات حسية بحسب طبيعتها وأشكالها . ولذلك " يطلق اصطلاح " الإدراك " أو الإدراك الحسي "في علم النفس على العملية العقلية التى تعرف بواسطتها العالم الخارجي . وذلك عن طريق المثيرات الحسية المختلفة التى تسقط على حواسنا المختلفة من العالم يحيط بنا " (١) .

---

١ – علم النفس الفسيولوجي ص (١٥١) ، د/عبد الرحمن العيسوي ، بيروت ١٩٧٤ .

" ومن أجل ذلك يقال : إنه لا يوجد إدراك بغير إحساس ، ولكن يوجد إحساس بغير إدراك ، ولذلك تختلف عملية الإدراك باختلاف الأفراد ، فأنت لا تري في السماء ما يراه الفلكي ، ولا تري تحت المجهر ما يراه عالم الأحياء " (١) .

مراحل الإحساس :

إن إحساسنا بالأشياء لا يتم هكذا دفعة بل يمر بمراحل هي :

١ – مرحلة فيزيقية كيمائية : وهي التأثر الخارجي ، والتغير الناتج منه في العضو .

٢ – مرحلة فسيولوجية:هي مجاوبة العضو ، وتأثير الجهاز العصبي

٣ – مرحلة وجدانية : وهي الإحساس بمعني المعرفة أو الإدراك ، وبين المعرفة أو الإدراك .

والتأثير أو الانفعال نسبه عكسية . فإذا كان الانفعال قوياً . أضر بالإدراك ، فلكي يكون الإدراك تاماً ينبغي أن يكون التأثير الواقع على الحاسة مناسباً ، وأن يكون الانفعال معتدلاً (٢) .

هذه هي الحواس ، وتلك وظيفتها ، وهذا هو الإدراك الحسي ، فماذا عن قيمة المعرفة المعتمدة على الحواس ؟

قيمة المعرفة الحسية :

على ضوء ما سبق ينكشف لنا أن هذا النوع من المعرفة يتميز بما يلي: –

١ – الحسية : من حيث مصدرها ، ومن حيث مادة موضوعها .

---

١ – علم النفس الفسيولوجي ص (١٥٩) .

٢ – الطبيعة وما بعد الطبيعة ص (٧٦) يوسف كرم ط ٣ ، دار المعرف بمصر .

٢ – **الجزئية** : من حيث أنها متعلقة بالمادة في بعض أشكالها وصورها .

٣ – **التغير** : وذلك بسبب ما يطرأ على من المادة من تغيرات ، وكذلك الحواس أيضاً متغيرة .

٤ – **النسبية** : نسبة إلي الحواس ، وهي تختلف باختلاف الأفراد ، بل تختلف باختلاف أحوال الفرد نفسه ، صغراً وكبراً ، قوة وضعفاً ، صحة ومرضاً .

٥ – **أنها عرضة للخداع والوهم** ، مثلما يحدث في حال السراب ، وانكسار الضوء ، ورؤية الأجرام البعيدة صغيرة كرؤيتنا للشمس مثلاً قرصاً دائرياً صغيراً مع أنها في حقيقتها أكبر من الأرض .

٦ – **أنها معرفة ظنية** : وليست يقينية ومن هنا فإنها تحتاج إلي الإدراك العقلي بالضرورة لكي تكون يقينية . وكذلك لكي ترقي إلي مستوي القاعدة الكلية

هذه قيمة المعرفة الحسية فيما نري ، فماذا يري الماديون فيها بصفة خاصة ؟

الماديون والمعرفة الحسية :

والماديون لا يعترفون بغير ذلك النوع من المعرفة ، فلا يرون في الوجود سوي المحسوس ، وما لا يدركه الحس بذاته ففرض وجوده محال ، ومن هنا فإنهم ينكرون – في إصرار – ما وراء المادة من غيبيات وروحانيات ، ومفاهيم كلية ، وقيم إنسانية مطلقة ، وحقائق ثابتة .

إن ذلك يرجع إلي اعتماد الماديين المطلق " المنهج التجريبي " طريقاً إلي العلم والمعرفة ، وبما يرونه من القول بخواص المادة الذاتية بحيث تفعل وتؤثر بذاتها دون احتياج إلي قوة خارجية تحكمها . وقد تبلور هذا الموقف في جوانب كثيرة أهمها فيما نري : –

١ – حتمية العلاقة السببية .

٢ – يقينية النتيجة في المنهج التجريبي .

٣ – مادية السبب الأول الذي يحكم الوجود كله .

وبيان ذلك فيما يلي :-

أولاً : حتمية العلاقة السببية :

يعتقد الماديون أن الأسباب تفعل بذاتها ، لما تتمتع به من خواص ذاتية . فإذا وجدت النار والمادة القابلة للاشتعال ، فإنه – قطعاً وبالضرورة – يتحقق الاحتراق ... وهكذا .. وإن هذا أمر واضح البطلان – فقد يتخلف السبب ويوجد المسبب كما في خلق آدم – عليه السلام – وكما في حال سيدنا إبراهيم ، ومحاولة المشركين إحراقه بالنار . وإن كان الماديون ينكرون ذلك فإنكارهم لن يغير من الأمر شيئاً ، لأنه حقيقة واقعة ، ومعجزة حسية مناسبة للمفاهيم المادية

يعني هذا : أن ثمة قدرة خارجية تحكم الأسباب المادية ، فإن أرادت لها أن تفعل فعلت وإلا فلا .

وبذلك يتهافت القول : بحتمية العلاقة السببية :

ثانياً : يقينية النتيجة :

وقد زعموا أن النتيجة في المنهج التجريبي يقينية لأنه يعتمد على الملاحظة العلمية ، والتجربة العملية ، فإن المادة تتمتع بخواص ذاتية التأثير .

ولكننا نقول : هذا وهم من أوهام الماديين اللهم إلا إذا كانت تلك النتيجة تؤكد حقيقة كونية واقعة ، فهي حينئذ حقيقة علمية .

أما في مجال النظريات العلمية فإنها – في كثير من الأحيان – عرضة لأن تنهار وتقوم على أنقاضها نظرية أخري جديدة .

إن هذا الذي نراه يتأكد من بحوث الماديين أنفسهم في مجال المادة – ونعني بذلك نظرية الذرة القديمة – .

فمنذ أن قال ديمقريطس ٤٢٠ ق.م ، والماديون يعتمدونها فيعتقدون أن الذرة هي ذلك الجزئ الذي يشكل الوحدة الأساسية في بناء الكون ، لا تتجزأ ، ولا تنشط ولا تنقسم .... الخ .

واستمر الحال هكذا حتى جاء أينشتين ، بأبحاثه في " النسبية العامة والخاصة " والتي كانت الشرارة التي انطلق منها العلماء لاقتحام الذرة وكانت النتيجة انشطارها وتفجرها . فانكشف للعلماء أن الذرة عالم رهيب يحتوي على بروتونات وإليكترونات ونواة ، وأنها أخطر سلاح عرفته البشرية ، من الممكن أن يحقق الدمار الشامل ليس في الحاضر فقط بل في المستقبل أيضاً ، كما أنه من الممكن استغلاله في رفاهية الإنسانية والحفاظ عليها في مجالات الطب والزراعة والصناعة وغيرها.

بهذا كله انهارت النظرية الذرية القديمة . وقامت على أنقاضها تلك النظرية الجديدة ، يقول البروفيسور سوليفان بعد نقد وجهه إلى النظريات العلمية:

" هذا العرض للنظريات العلمية يثبت أن معنى " نظرية علمية صحيحة " أنها " فروض علمية ناجحة " ومن الممكن تماماً أن يكون سائر النظريات العلمية باطلاً . ذلك أن النظريات التي نعتبرها اليوم (حقيقة) ليست إلا قياساً على وسائلنا المحدودة للملاحظة ، ولا تزال قيمة الحقيقة في عالم العلم ، قضية عملية نفعية " (١) .

نخلص من ذلك إلى ما قلناه أولاً من أن النتيجة في المنهج التجريبي ، ليست يقينية – كما يزعم الماديون – وإنما هي احتمالية تحتمل الخطأ وإن قبلت الصواب .

---

١ – الإسلام يتحدى ص (٤٦) وحيد الدين خان ، ط ٨ المختار الإسلامي ، القاهرة .

ثالثاً : نوعية السبب الأول :-

يعتقد الماديون أن كل شيء في الوجود سببه المادة ، أو الطبيعة منها كل شيء ، وإليها يرجع كل شيء حتى الإنسان بما فيه من روح وعقل ووجدان . كل ذلك ليس سوي نتاج التفاعلات الكيميائية في جسم الإنسان.

أما كيف نشأت الحياة من تلك المادة من وجهة النظر المادية ؟ فإنهم يردونها إلي : الصدفة أو الطبيعة .

ومن الذي أودع فيها خواصها ؟

ومن الذي حدد لها نسب تكونها وتلاحمها ؟ وهكذا ...

الجواب : أن كل ذلك يتم بالصدفة ، أو الطبيعة .

والرأي – عندنا – أن هذه خرافة يرفضها العقل السليم . بمقتضى " قانون السببية " الذي يعرفه الماديون أيضاً .

أما في جانب الصدفة ، فإنه من المحال عقلاً بمقتضى هذا القانون أن يوجد شيء ما بغير سبب فاعل في وجوده .وليس من المعقول أن يكون هذا العالم – بما فيه من إبداع وضبط وتوازن ، وانسجام وتماسك – وليد الصدفة .

وأما في جانب الطبيعة فإنه يترتب عليه – بمقتضى قانون السببية كذلك – أن تكون الطبيعة فاعلة ومنفعلة في وقت واحد ، وذلك لأنها من حيث إنها سبب تصبح متقدمة في الوجود على نفسها ، ضرورة تقدم السبب على المسبب في الوجود .

وكذلك من حيث إنها مسبب تصبح متأخرة في الوجود على نفسها ضرورة تأخر المسبب عن السبب في الوجود .

وهكذا تصبح الطبيعة متقدمة على نفسها ومتأخرة – كذلك – على نفسها في وقت واحد وهذا محال .

تأمل قوله تعالى في سورة الطور : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ (سورة الطور الآية : ٣٥ ، مكية) .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – : " إن الحقيقة المعتبرة في كل برهان ، ودليل في العالم هو اللزوم ، فمن عرف أن هذا لازم لهذا ، استدل بالملزوم على اللازم ، وإن لم يذكر لفظ اللزوم ، ولا تصور معنى هذا اللفظ ، بل من عرف أن كذا لابد له من كذا ، أو أنه إذا كان كذا كان كذا ، وأمثال هذا ، فقد علم اللزوم ، كما يعرف أن كل ما في الوجود آية لله ، فإنه مفتقر إليه ، محتاج إليه لابد له من محدث ، كما قال تعالى : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ (سورة الطور الآية : ٣٥ ، مكية) قال جبير بن مطعم : لما سمعت هذه الآية أحسست بفؤادي قد انصدع ، فإن هذا تقسيم خاصه ، يقول : أخلقوا من غير خالق خلقهم ؟ فهذا ممتنع في بداية العقول ، أم خلقوا أنفسهم ؟ فهذا أشد امتناعاً ، فعلم أن لهم خالقاً خلقهم .

" وهو سبحانه ذكر الدليل بصيغة استفهام الإنكار ليبين أن هذه القضية التى استدل بها فطرية بديهية مستقرة في النفوس ، لا يمكن لأحد إنكارها ، ولا يمكنه أن يقول : هذا أحدث نفسه " (١) .

هل صحيح أن المادة تتمتع بخواص ذاتية ؟

إن مشكلة الماديين – في كل ما قالوه ويقولونه عن المادة والكون والحياة ترجع – بصفة أساسية – إلي ما يزعمونه من القول : بالخواص الذاتية للمادة أي أن هذه الخواص من ذات المادة وبذاتها وليست بحاجة إلى قدرة فاعلة فيها .

هنا تحرير محل النزاع أو مربط الفرس كما يقال . فهل هذا صحيح ؟

---

١ – مجموع فتاوى ابن تيمية ج ٩ كتاب المنطق ص (٢١٢) .

إن الأمر جدير بالاعتبار والاهتمام ، طالما أن هؤلاء يتكلمون باسم العلم الحديث أي الذي يعتمد على المنهج التجريبي . فهل يوافق العلم الحديث على ذلك ؟

إننا نعني هنا : " الفيزياء الحديثة على وجه الخصوص فأين منها ذلك الزعم المادي ؟

حسبنا في هذا المجال أن نقف على آخر ما توصلت إليه الفيزياء الحديثة ، من نتائج :

لقد بحث هذا الموضوع الأستاذ "محمد باقر الصدر" بدقة دقيقة ، في كتابه "فلسفتنا تحت عنوان المادة في ضوء الفيزياء (1) نقتطف منه ما يلي :- إنه يقول : " من الحقائق التي أتيح للعلم إثباتها هو : إمكان تبدل العناصر بعضها ببعض وعمليات التبدل هذه بعضها يتم بصورة طبيعية ، وبعضها يحصل بالوسائل العلمية .

وقام (رذرفورد) ... بأول محاولة لتحويل عنصر إلي عنصر آخر . وذلك أنه جعل قوي ذرات الهليوم (دقائق لالفا) تصطدم بنوي ذرات الأزوت فتولدت البرتونات . أي نتجت ذرة هيدروجين من ذرة الأزوت وتحولت ذرة الأزوت إلي أوكسجين .. وأكثر من هذا ... فقد ثبت أن من الممكن أن تتحول بعض أجزاء الذرة إلي جزء آخر ، فيمكن لبروتون – أثناء عملية انقسام الذرة – أن يتحول إلي نيوزون وكذلك العكس .

" وهكذا أصبح تبدل العناصر من العمليات الأساسية في العلم ، ولم يقف العلم عند هذا الحد . بل بدأ بمحاولة تبديل المادة إلي طاقة خالصة ، أي نزع الصفة المادية للعنصر بصورة نهائية . وذلك على ضوء جانب من النظرية النسبية لـــ (أنشتين) إذ قرر أن كتلة الجسم نسبية ، وليست ثابتة ، فهي تزيد بزيادة السرعة ... كما تؤكد التجارب التي أجراها علماء الفيزياء الذرية على

---

١ – فلسفتنا ص (٢٣٧) وما بعدها ، د / محمد باقر الصدر بيروت ط ١٠ سنة ١٩٨٠ م .

الالكترونات التى تتحرك في مجال كهربائي قوي ... " ويقول "أينشتين" في معادلته : إن الطاقة = كتلة المادة × مربع سرعة الضوء . (سرعة الضوء = ٨١٦,٠٠٠ ميلاً في الثانية) كما أن الكتلة = الطاقة : - مربع سرعة الضوء وبذلك ثبت أن الذرة بما فيها من بروتونات والكترونات ليست في الحقيقة إلا طاقة متكاثفة يمكن تحليلها وإرجاعها إلي حالتها الأولي ، فهذه الطاقة هي الأصل العلمي للعالم في التحليل الحديث ، وهي التى تظهر في أشكال مختلفة وصور متعددة : صوتية ، ومغناطيسية ، وكهربائية ، وكيماوية ، وميكانيكية " .

وبعد بحث مستفيض يقول :

" ونستنتج من الحقائق العلمية التى عرضنا عدة أمور ؟

أ – أن المادة الأصلية للعالم حقيقة واحدة مشتركة بين جميع كائناته ، وظواهره ، وهذه الحقيقة المشتركة هي التى تظهر بمختلف الأشكال ، وتتنوع بشتي التنوعات .

ب – أن خواص المركبات المادية كلها عرضية بالإضافة إلي المادة الأصلية ، فالماء بما يملك من خاصية السيلان ليس شيئاً ذاتياً للمادة التى يتكون منها ، وإنما هو صفة عرضية ، بدليل : أنه مركب من عنصرين بسيطين ، وفي الإمكان إفراز هذين العنصرين عن الآخر فيرجعان إلي حالتهما الغازية ، وتزول صفة الماء تماماً . ومن الواضح أن الصفات التى يمكن أن تزول عن الشيء لا يمكن أن تكون ذاتية له .

ج – أن خواص العناصر البسيطة نفسها ليست ذاتية أيضاً – فضلاً عن خصائص المركبات – والبرهان العلمي على ذلك ما مر بنا من إمكان تحرك بعض العناصر إلي بعض ، وبعض ذراتها إلي ذرات أخري ، طبيعياً أو صناعياً ، فإن هذا أمر يدل على أن خصائص العناصر إنما هي صفات عرضية للمادة المشتركة بين جميع العناصر البسيطة .. فليست صفات : الراديوم والرصاص

والأزوت والأوكسجين ذاتية للمواد التي تتمثل في تلك العناصر : ما دام في الإمكان تبديلها البعض بالبعض .

د – وأخيراً ، فنفس صفة المادة أصبحت – على ضوء الحقائق السابقة – صفة عرضية أيضاً ، فهي لا تعدو أن تكون لوناً من ألوان الطاقة ، وشكلاً من أشكالها ، وليس هذا الشكل ذاتياً لها ، لما سبق تبين أنها قد تستبدل هذا الشكل بشكل آخر ، فتتحول المادة إلي طاقة ، ويتحول الكهرب إلي كهرباء .

ثم ينتهي المؤلف – بعد ذلك إلي النتيجة الفلسفية فيقول – " وإذا أخذنا تلك النتائج العلمية بعين الاعتبار ، وجب أن ندرسها درساً فلسفياً لنعرف ما إذا كان في الإمكان أن تفترض المادة هي السبب الأعلى (العلة الفاعلة) للعالم أم لا ؟ ولا نتردد في أن الجواب الفلسفي على هذا السؤال هو النفي بصورة قاطعة وذلك لأن المادة الأصلية للعالم حقيقة واحدة عامة ، في جميع مظاهره وكائناته ، ولا يمكن للحقيقة الواحدة أن تختلف آثارها ، وتتباين أفعالها " .

لقد آثرنا هذه النقول – على كثرتها – لأنها تدمغ زعم الماديين بالحقائق العلمية التي انتهت إليها الفيزياء الحديثة بالإضافة إلي أنها تغنينا عن كثير غيرها من المصادر العلمية وهي متوفرة لمن أراد الرجوع إليها .

وهذه النتائج بلا شك تنتهي إلي ما انتهى إليه فلاسفة الإسلام ومفكروه بالطرق الفلسفية غير أنها هي الأنسب في هذا المقام ، مقام البحث العلمي التجريبي .

وأخيراً يبقى السؤال :

هل تستطيع الحواس أو المنهج التجريبي أن يصل إلي الحقيقة ؟

لقد اعتمد الماديون هذا المنهج فرفضوا به الوجود الإلهي . وكل ما وراء المادة من غيبيات وروحانيات ، ومفاهيم كلية ، وحقائق ثابتة ، وقيم إنسانية

مطلقة ... وقد انكشف لنا أن ما زعموه يصطدم بالحقائق والعلمية ومن ثم نستطيع القول :

إن المنهج التجريبي يستطيع – بيقين – أن يصل من خلاله الإنسان إلي الحقيقة الأزلية والمعرفة العليا ، لا عن طريق ذاتها مباشرة بل عن طريق آثارها المترامية الأطراف في رحاب الكون ، وهذا ما قررته الآيات الكونية في القرآن الكريم وجاء به العلم الحديث .

فإن كثيراً من الأشياء لا تدرك بذاتها مباشرة ولكن تدرك بآثارها ومن هذه الأشياء ما اكتشفه الماديون أنفسهم مثل : الطاقة والجاذبية ، والكهرباء ، وكذلك تلك الحقائق الواقعة كالروح والطبيعة وغيرها من صنع الله الذي أتقن كل شيء إنه على كل شيء قدير .

ورغم أن النتيجة في المنهج التجريبي ظنية واحتمالية أي عرضة للصواب والخطأ فإنها طالما تتفق مع الحقائق الواقعة في الوجود فإنها تصبح يقينية تؤدي إلي اليقين .

ومن جانب آخر لا يمكن لإنسان أن يتجه بالبحث نحو الحقيقة الأزلية ويسلك طريق الحس أو المنهج التجريبي ويقف عند حد الحس وحده بل إنه في هذه الحال لا ينفصل عن الإدراك في شيء ومن ثم يكون هذا هو " الإدراك الحسي " الذي يعنيه علم النفس الفسيولوجي ، وتلك حقيقة واقعة لا مناص منها .

وفي نهاية هذا الموضوع نذكر بالآيات الكونية في القرآن الكريم . وكيف أن الله تعالي قد عني بتوجيه الإنسان نحو الكون بهذا الكم الهائل من تلك الآيات الربانية . وما ذلك إلا أنها تؤتي ثمارها بحق في الوصول إلي المعرفة العليا عن طريق الإدراك الحسي في الاعتبار الأول .

لأنه هو الذي يعم جميع الناس . تأمل قوله تعالي من سورة النحل :

﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (١) .

﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ (٢) .

﴿ وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٣) .

﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ * وَعَلَى اللّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَاء لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٤) .

﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٥) .

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالْنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالْنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (٦) .

﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ (٧) .... وهكذا إلي قوله تعالى : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ اللّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٨) .

---

١ – سورة النحل الآية رقم : (٣) .
٢ – سورة النحل من الآية رقم : (٤) .
٣ – سورة النحل الآيات رقم : (٥ – ٧) .
٤ – سورة النحل الآيات رقم : (٨– ٩) .
٥ – سورة النحل الآيتان رقم : (١٠ – ١١) .
٦ – سورة النحل الآية رقم : (١٢) .
٧ – سورة النحل الآية رقم : (١٣) .
٨ – سورة النحل الآية رقم : (١٨) .

﴿ وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ (١) .

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴾ (٢) .

﴿ وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (٣) .

﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ (٤) .

﴿ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاء لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٥) .

بل إن مجرد استقراء أسماء السورة في القرآن الكريم يلفت نظر الإنسان المخلص – الذي ينشد الحقيقة – إلى ما في الكون من دلائل القدرة الإلهية ، وشواهد العظمة الربانية .

إن منها ما هو بأسماء الإنسان : النساء . الإنسان . الناس . عدا أسماء بعض الأنبياء حيث يقص علينا سيرتهم مع الماديين المشركين من أقوالهم . مثل : يونس ويوسف وإبراهيم ومحمد "صلى الله عليهم أجمعين" .

وإن منها ما هو بأسماء الحيوان : البقرة . الأنعام . العاديات والفيل

---

١ – سورة النحل الآية رقم : (٦٥) .
٢ – سورة النحل الآية رقم : (٦٦) .
٣ – سورة النحل الآية رقم : (٦٧) .
٤ – سورة النحل الآية رقم : (٦٨) .
٥ – سورة النحل الآية رقم : (٦٩) .

وإن منها ما هو بأسماء الحشرات : النحل . النمل . العنكبوت .

وإن منها ما هو بأسماء بعض الظواهر الطبيعية : الرعد . الذاريات . الدخان . المرسلات .

وإن منها ما هو بأسماء المعادن : الحديد .
وإن منها ما هو بأسماء النبات : التين .
وإن منها ما هو بعض مراحل الجنين : العلق .

وإن منها ما هو بأسماء بعض الأماكن : الكهف . سبأ . الأحقاف . الطور . الحجرات . البلد .

وإن منها ما هو بأسماء الزمن : الجمعة . الليل . الضحى . العصر
وإن منها ما هو أدوات القلم والكتابة : القلم .
وإن منها ما هو اليوم الآخر : الواقعة . الحاقة . القيامة . الغاشية . القارعة . الزلزلة .

وإن منها ما هو أسماء الله وصفاته : فاطر . الرحمن .

هذا بالإضافة إلي صيغ القسم المختلفة بكثير من آيات الله ومخلوقاته للدلالة على ما فيها من مظاهر القدرة الإلهية والمنافع الربانية للإنسان والحياة .

الدلالات المستفادة من الآيات الكونية :-

إن الآيات الكونية في القرآن الكريم تؤكد لنا الكثير من الدلالات التي تدعم إيمان المؤمن كما تدفع غير المؤمن إلي الإيمان . ومن هذه الدلالات بل أهمها :

١ – دلالة الخلق والإتقان والإبداع .
٢ – دلالة العناية والرعاية .
٣ – دلالة الهيمنة والتدبير .

الخلق دليل التحدي :

١ – إن دلالة الخلق في هذا الكون البديع الصنع تؤكد – بما لا يقبل الشك إلا من معاند مكابر – أنه من صنع الله تعالي وحده . إنه على كل شيء قدير .

ومن هنا كان التحدي المطلق بهذا الخلق الإلهي في جنبات الكون . ومن هنا كان قوله : ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴾ (سورة النحل : ١٧ ، مكية) .

﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ (سورة النحل : ٢٠ ، مكية) .

وهاتان الآيتان جاء موقعهما بعد ذكر الكثير من الآيات الكونية والتي كان ختامها ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا ﴾ .

وفي التحدي أيضاً ﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (سورة لقمان : ١١ ، مكية) .

ومن ذلك أيضاً : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ (سورة الحج : ٧٣ ، مدنية) .

وكان الخلق دليل التحدي لأنه يعني : إيجاد الأشياء من العدم المحض على غير مثال سابق وهذا ما لا يقدر عليه إلا الله تبارك وتعالي .

إن هذا الخلق الإلهي يتم وفق القدرة الربانية الخلاقة ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ * وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴾ (سورة القمر : ٤٩ – ٥٠ ، مكية)

ومن آيات الخلق الكثيرة في القرآن : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (سورة البقرة : ٢١ ، مدنية)

٢ – وأما العناية الإلهية بهذا الكون خاصة وبالإنسان عامة فمظاهرها في القرآن كثيرة أيضاً ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاء بِنَاء وَأَنزَلَ مِنَ

السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (سورة البقرة : ٢٢ ، مدنية) .

٣ – وأما الهيمنة الإلهية . والتدبير الرباني لهذا العالم ، فإنه لا يقع في ملك الله إلا ما يريده الله " .

﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (سورة الأعراف : ٥٤ ، مكية) .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ (سورة فاطر : ٤١ ، مكية) .

﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ .

ثانياً : الإدراك العقلي

لقد سبق لنا الحديث عن العقل باعتباره من أهم الدوافع الذاتية إلي المعرفة ، ولكنا هنا نتكلم عنه باعتباره وسيلة من وسائل المعرفة التى منحنا الله إياها .

ذلك أن الإدراك العقلي هو الطريق الثاني من طرق المعرفة التى زود الله بها الإنسان . وقد انكشف لنا دور الحواس ، وقيمة المعرفة المستفادة منها ... الخ .

وقبل أن نتكلم هنا عن دور العقل ينبغي أن نتعرف أولاً على طبيعته وماهيته ووظائفه التي يقوم بها . فنقول وبالله التوفيق .

طبيعة العقل :

إن طبيعة العقل وماهيته ومكانه لأمور استأثر الله تعالي بعلمها . ومهما كان دور العقل وأثره فإنه عاجز – تماماً – عن إدراك ماهيته ، وكل ما يمكن معرفته عن نفسه يقع في مجال وظائفه ونشاطاته التي يقوم بها ، وهذا هو القدر المطلوب منه ، فلو كانت معرفة ماهيته وطبيعته يتوقف عليها شيء ما لعرفنا الله

بها وكشف لنا عنها ، بالإضافة إلي أن حجب هذه المعرفة عن الإنسان يحد من غرور العقل ، ويؤكد محدوديته مهما كان الأمر .

إن القرآن الكريم يعبر عن العقل تارة : بالقلب والقلوب ، وتارة أخري بالفؤاد والأفئدة أما كلمة " العقل " بذاتها ، فلم ترد في استعمالات القرآن الكريم . مما يؤكد أن معرفة ماهية العقل لا تعني الإنسان في شيء . وإنما الذي يعنيه ويحرص عليه هو معرفة وظائفه ، والقيام بها على الوجه الأكمل ما أمكن .

إن استعمالات القرآن الكريم تدور حول الفعلين : الماضي والمضارع فقط (١) . وهكذا ....

عقلوه ١
نعقل ١
يعقلها ١
تعقلون ٢٤
يعقلون ٢٢

إن هذه التصرفات يسندها القرآن إلي " القلب " وقد يعبر عنه بالفؤاد . أو الأفئدة ، لأن الفؤاد هو القلب . وقد جاء في المعجم الوسيط قوله " الفؤاد : القلب . وفي التنزيل العزيز ﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ﴾ (سورة النجم الآية : ١١) ويقال : هو فارغ الفؤاد لا هم عنده ولا حزن . أو سيء الحال . وبه قال بعض المفسرين في قوله تعالي : ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا ﴾ (٢)

ومن استعمال القرآن للقلب بمعني العقل قوله تعالي : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ (سورة الحج : ٤٦ ، مدنية) .

---

١ - المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم مادة " عقل " محمد فؤاد عبد الباقي .

٢ - المعجم الوسيط ك ج ٢ مادة : فؤاد .

وفي سورة الأعراف ، قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ ﴾ (١٧٩ ، مكية) ، والفقه أعلى درجات الفهم .

في تفسير " غرائب القرآن " وعند قوله تعالى : ﴿ خَتَمَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهمْ ﴾ يقول النيسابوري " القلب يراد به تارة اللحم الصنوبري المودع في التجويف الأيسر من الصدر ، وهو محل الروح الحيواني الذي هو منشأ الحس والحركة ، وينبعث منه إلى سائر الأعضاء بتوسط الأوردة والشرايين . ويراد به تارة اللطيفة الربانية التى بها يكون الإنسان إنساناً ، وبها يستعد لامتثال الأوامر والنواهي ، والقيام بواجب التكليف ﴿ إن في ذلك لذكري لمن كان له قلب ﴾ (١)

أما الإمام الغزالي فإنه يقول :

" القلب يطلق على معنيين :

المعنى الأول : هو اللحم الصنوبري الشكل المودع في الجانب الأيسر من الصدر ... والقلب بهذا المعنى لا يتعلق به غرضنا ، وإنما يتعلق بغرض الأطباء .

المعنى الثاني : هو اللطيفة الربانية الروحانية ، ولها بهذا القلب الجسماني تعلق وهي حقيقة الإنسان ، والمدرك العالم العارف المخاطب والمعاتب والمطالب .

ويقول عن العقل : وهو أيضاً يطلق على معنيين :

المعنى الأول : وهو العلم بحقائق الأمور ، فيكون عبارة عن صفة العلم الذي محله القلب .

المعنى الثاني : هو المدرك للعلوم ، فيكون هو القلب ، أي تلك اللطيفة الربانية " (٢) .

---

١ - تفسير غرائب القرآن على هامش الطبري ج ١ ، بيروت ١٩٨٦ .

٢ - إحياء علوم الدين ج ٣ ص (٣) وما بعدها ، كتاب " شرح عجائب القلب " .

وأياً ما كان الأمر من خلاف في هذا الشأن بين علماء الدين وعلماء التشريح والأطباء فإن الذي يعنينا هنا : أن حقيقة العقل وكنهه أمر لا يعلمه إلا الله تعالي . ولكن في مقدورنا أن نعلم وظائفه التي يقوم بها . وما من شك في أن العمليات العقلية ينعكس أثرها على القلب ، خيراً وشراً ، وقبضاً وبسطاً ، لما لذلك العقل من تعلق بالقلب .

وكذلك يظهر أثرها على المخ وخلاياه ، مما يعني أن ثمة تعلقاً لهذه العمليات العقلية بالمخ والدماغ ، ويظهر ذلك واضحاً في ضغط الدم ارتفاعاً وانخفاضاً .. وغير ذلك من الأمور التي يعرفها الأطباء ، خاصة أولئك المختصون بالمخ والأعضاء .

ويمكن القول بأن القلب يعني الباطن لأن قلب كل شيء باطنه . والقلب والمخ في باطن الإنسان وجوانيته ، والله أعلم بالمراد على التحقيق .

وظائف العقل :

لقد تكلمنا عن العقل – فيما سبق – باعتباره من أهم الدوافع الذاتية التي تدفع الإنسان دفعاً نحو العلم والمعرفة ، بصفة عامة والحقيقة الأزلية الخالدة بصفة خاصة .

ولكنا هنا – نتكلم عن العقل باعتباره وسيلة من أهم الوسائل التي يصل من خلالها الإنسان – بحق – إلي معرفة الحق تبارك وتعالي .

ذلك : أنه من وظائف العقل : الإدراك والتأمل ، والتذكر والتدبر ، والتفكر والتعلم . والحكم على الأشياء ، والأفعال والأقوال والاعتقادات ، بالحق أو بالباطل ، والخير أو الشر ، والصدق أو الكذب ... وهكذا .

وليس ذلك فقط بل من وظائفه أيضا : أنه يناط به الوازع الأخلاقي ، أو المنع عن المحظور والمنكور .

ومن خصائص العقل ملكة الإدراك التي يناط بها الفهم والتصور .

" ومن خصائص العقل أنه يتأمل فيما يدركه ، ويقبله على وجوهه ، ويستخرج منه بواطنه وأسراره ، ويبني عليها نتائجه وأحكامه ، وهذه الخصائص في جملتها – تجمعها ملكة الحكم ، وتتصل بها ملكة الحكمة .

" ومن أعلى خصائص العقل : الرشد ، وهو مقابل لتمام التكوين في العقل الرشيد ، ووظيفته الرشد ، فوق وظيفة الوازع ، والعقل المدرك ، والعقل الحكيم ، لأنها استيفاء لجميع هذه الوظائف ، وعليها مزيد من النضج والتمام ، والتمييز بميزة الرشاد ، حيث لا نقص ولا اختلال : وقد يؤتي الحكيم من نقص في الإدراك ، وقد يؤتي العقل الوازع من نقص في الحكمة ، ولكن العقل الرشيد ينجو به الرشاد من هذا وذاك " .

" وفريضة التفكير في القرآن الكريم تشمل العقل الإنساني ، وبكل ما احتواه من هذه الوظائف بجميع خصائصها ومدلولاتها ، فهو يخاطب العقل الوازع ، والعقل المدرك ، والعقل الحكيم ، والعقل الرشيد ، ولا يذكر العقل عرضاً مقتضباً ، بل يذكره مقصوداً مفصلاً على نحو لا نظير له في كتاب من كتب الأديان " (١) .

ومن هنا أيضاً كان خطاب القرآن إلي العقل بجميع وظائفه التي لها ، وكل خطاب إلي ذوي الألباب – كما يقول العقاد – فهو خطاب إلي اللب ، وهذا العقل المدرك الفاهم ، لأنه معدن الإدراك والفهم في ذهن الإنسان ، كما يدل عليه اسمه في اللغة العربية (٢) .

وقد جاء في المعجم الوسيط " عقل – عقلاً : أدرك الأشياء على حقيقتها ، والغلام أدرك وميز ، يقال : ما فعلت هذا قد عقلت ، وإليه : عقلاً وعقولاً . لجأ وتحصن ، والظل عقلاً ، انقبض وانزوي عند انتصاف النهار ، وعقل الشيء

---

١ – التفكير فريضة إسلامية ص (٨ ، ٩) .

٢ – نفسه ص (١٢) .

أدركه على حقيقته " (١) وأولوا الألباب هم العقلاء الخلص من الناس ، وإلى هؤلاء كان خطاب القرآن الكريم في ستة عشر وصفاً يمكن تصفيتها إلى مجموعتين : هما :

المجموعة الأولى :

يكون الأمر فيها بالتقوى وهي تعني : استشعار الوجود الإلهي في كل شيء ، وكل حال ، في الاعتقادات وفي الأفعال وفي الأقوال ، وفي الحركات والسكنات ، وفي السر والعلانية ، فهم أولى الناس بخشية الله لمعرفتهم به حق المعرفة " .. وفي هذا المجال قوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (سورة البقرة : ١٧٩ ، مدنية)

﴿ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ ﴾ (سورة البقرة : ١٩٧ ، مدنية)

﴿ قُل لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُواْ اللّهَ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (سورة المائدة : ١٠٠ ، مدنية)

المجموعة الثانية :

فيها الأمر بالتذكير والاعتبار ، ومنها قوله تعالى : ﴿ يُؤتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاء وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ ﴾ (سورة البقرة : ٢٦٩ ، مدنية)

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ ﴾ (سورة آل عمران : ١٩٠ ، مدنية)

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ ﴾ (سورة يوسف : ١١١ ، مكية)

---

١ - المعجم الوسيط ج ٢ ص (٦١٦) .

﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ (سورة ص : ٢٩ ، مكية)

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ (سورة الزمر : ٢١ ، مكية) .

طبيعة الإدراك العقلي :

العقل ملكة ربانية مجردة من الشوائب المادية لا يعلم كنهها إلا الله تبارك وتعالي . وهذه الملكة لها تعلق بالقلب والمخ في الإنسان لا يعلم طبيعته إلا الله وحده لا شريك له ، " وهو الفطرة الغريزية والنور الأصلي الذي به يدرك الإنسان حقائق الأشياء " (١) .

ولما كان العقل من المجردات فإنه ينزع – بالضرورة – إلي إدراك المجردات ، والمفاهيم العامة ، والقضايا الكلية ، والحقائق الثابتة ، والقيم الإنسانية المطلقة ، ومثال ذلك – في وضوح – كلمة " الإنسانية " فإنها مفهوم كلي عام ، وقيمة مطلقة وهي منتزعة – بالعمليات العقلية – من الواقع المحسوس لأفراد بني الإنسان ، حيث تقوم الحواس بنقل صورها إلي العقل ، فيعمل فيها نشاطه بتجريدها من كل الشوائب الحسية المتعلقة بها ، وينتزع القدر المشترك من بينها ، والذي يصدق على جميع أفراد البشر .

العقل – إذن قادر على إدراك المجردات فيما وراء المادة من حيث المبدأ لا من حيث حقيقتها وطبيعتها ، فإن ذلك لا يعلمه إلا الله ، وللعقل في ذلك طريقتان :

الأول : الخبر الصادق عن المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحي ، ومن هذا القبيل الإيمان بالملائكة .

---

١ – الإحياء : ج ٣ ص (٣٩) ، د / عبد الحليم محمد ، طبعة ١٩٧٤ م .

الثاني : الإدراك الحسي للآثار المادية الناتجة عن هذه المجردات كالروح في الإنسان ، فإننا لا ندركها بذاتها مباشرة ، ولكن بآثارها ومظاهرها في الجسم الذي ينبض بالحياة .

ومن هنا ، فإن العقل بواسطة إدراكه لهذا العالم البديع الصنع لا يجد ثمة مشكلة في معرفة خالقه – عز وجل – لأنه ينطلق نحو وجوده وسر حياته ، كما يترجم عن فطرته التى طبع عليها وغايته التى خلق لها . ولهذا يدرك العقل – بيقين – أن ما يتمتع به الكون من تناسق وحداثه ، وانسجام عناصره ، وما يقوم عليه من ضبط وتوازن ، كل ذلك لا يمكن أن يكون قد وجد عبثاً ، أو هكذا اتفاقاً وصدفة ، أو عن مادة صماء لا تعقل ، بل إن وراءه حقيقة أزلية خالدة ، وقدرة خلاقة مبدعة ، تحكمه وجوداً وعدماً ، ورعاية وعناية ، وهيمنة وتدبيراً " **﴿صنع الله الذي أتقن كل شيء إنه خبير بما تفعلون﴾** (سورة النمل : ٨٨ ، مكية) .. " لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا " (سورة الأنبياء : ٢٢ ، مكية) .

نخلص من ذلك إلي أن جميع صور الاستدلال – التى انطلق بها العلماء والمفكرون إلي الله تعالي – ترجع كلها إلي الإدراك الحسي مهما اختلفت طبائعها ، وتباينت مظاهرها :

سواء في ذلك الشعور النفسي عند سقراط .

أو الحركة والنظام عند أفلاطون .

وسواء في ذلك السببية عند أرسطو .

أو الحدوث عند المتكلمين .

أو الإمكان عند الفلاسفة المسلمين .

أو معرفة الذات عند ديكارت .

أو الدليل الوجودي عند ليبنتز .

أو الدليل الأخلاقي عند كانت .

أو الاستدلال بالخالق على الخلق كما هو الحال عند الصوفية .

إن العقل في كل من هذه الاستدلالات يعتمد على الإدراك الحسي من قريب أو بعيد ، ولنضرب لذلك مثالاً للتوضيح والبيان .

لقد اشتهر الفلاسفة المسلمون بدليل " الوجوب والإمكان " وهو دليل الفارابي ، أخذه عنه ابن سينا ، وهذا الدليل اشتهر بأنه طريق المعقولات المحضة ، وأساس هذا الدليل – كما يقول الفارابي – " أن الموجودات على ضربين :

أحدهما : إذا اعتبرت ذاته لم يجب وجوده ، ويسمي ممكن الوجود

والثاني : إذا اعتبرت ذاته وجب وجوده ، ويسمي واجب الوجود .

وممكن الوجود هو : ما استوي في أمره الوجود والعدم ، فلا غني إذن لوجوده عن علة .

وهذه العلة : إما أن تكون ممكنة فلا بد لها من علة ، ولا يجوز في الأشياء الممكنة " أن تمر بلا نهاية في كونها علة ومعلومة ، ولا يجوز كونها علي سبيل الدور ، بل لابد من انتهائها إلي شيء واجب هو الموجود الأول . وذلك هو الله تعالي " (١) .

واضح أن هذا الدليل منتزع من الواقع المحسوس لهذا العالم ، فهو متغير من الوجود إلي العدم وبالعكس وهذا هو شأن الممكن الذي استوي طرفاه : الوجود والعدم فيه سواء من حيث ذاته ، ويستحيل ترجيح أحد طرفية على الآخر بلا مرجح ، هنا يعمل العقل عمله ، فاهتدي إلي فكرة " واجب الوجود " الذي

---

١ – التفكير الفلسفي في الإسلام ص (١٣٦) ج ٢ ، د / عبد الحليم محمود . ط ١٩٧٤ ، نقلاً عن الفارابي " في عيون المسائل " .

وجوده من ذاته بالنظر إلي ذاته وهو دائم الوجود لا يحلقه تغير ، ويستمد منه كل موجود وجوده حقاً وإبداعاً وهيمنة وتدبيراً .

العقل إذن عن طريق الإدراك الحسي قادر على الوصول إلي الحقيقة من حيث المبدأ ، وبالجملة أما وراء ذلك مما يليق بتلك الحقيقة الأزلية من صفات الجلال والكمال والأفعال فلا تعلمها إلا بوحي من الله تبارك وتعالى ، ولنا في ذلك دليلان :

الدليل الأول : لقد وصل أرسطو (١) – على سبيل المثال – إلي معرفة الله عز وجل ، وأطلق عليه عدة أسماء : المحرك الأول ، المحرك الذي لا يتحرك ، العلة الأولي ، علة العلل ، منشأ الكائنات .

ولكن حينما انطلق يتكلم عن تنزيه إلهه – الذي تبين له : أنه بالضرورة جوهر دائم غير متحرك " – اعتبره لا يعلم العالم ولا يعني به فإن من الأشياء ما عدم رؤيته خير من رؤيته . الوسيلة إذن نبيلة لكن الغاية قبيحة لأنها نقص والنقص على الله تعالي محال .

الدليل الثاني : ما أخرجه الإمام أحمد والترمذي والنسائي وابن حجر ، عن أبي بن كعب : أن المشركين قالوا للنبي – (ﷺ) – يا محمد أنسب لنا ربك ، فأنزل الله تعالي : ﴿ **قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ** ﴾ (سورة الإخلاص) .

قال ابن كثير : " قال : عكرمه : لما قالت اليهود نحن نعبد عزير بن الله ، وقالت النصارى : نحن نعبد المسيح بن الله ، وقالت المجوس : نحن نعبد الشمس والقمر ، وقال المشركون : نحن نعبد الأوثان ، فأنزل الله على رسوله (ﷺ) : : قل هو الله أحد .... " (٢) .

---

١ – تاريخ الفلسفة اليونانية ، ص (١١٧) وما بعدها ، يوسف كرم ط ٦ .

٢ – مختصر تفسير ابن كثير : ج ٣ .

وفي النهاية نؤكد على أن الصورة العقلية ، والمفاهيم الكلية ، والقضايا المجردة التي ينتهي إليها العقل ليست محسوسة ، ولا موجودة في الواقع المحسوس ، وإن كان انتزاعها من الواقع ، فإن طبيعتها المعقولة اقتضت تجريدها من كل شائبة حسية .

يقول الكندي ، فيلسوف العرب .

" والأشياء إما كلية وإما جزئية فالكلي هو الأجناس للأنواع ، والأنواع للأشخاص " .

والجزئي هو " الأشخاص للأنواع والإدراك الحسي هو جزئي باستمرار .

أما الإدراك العقلي : أي إدراك الأجناس والأنواع ، فإنه واقع تحت الحواس ، وليس موجوداً حسياً ، وإنما إدراكه يكون بواسطة قوة في النفس التامة " أعني : الإنسانية ، هي المسماة والعقل الإنساني " .

وهذا النمط من المعرفة ليس متمثلاً في النفس ، وليس صورة تحتفظ بها الحافظة ، ذلك أن الذي يتمثل للنفس إنما هو المحس ، والإدراك الكلي إنما هو تجريد وطرح للأعراض الزائلة المختلفة المتغيرة ، واستبقاء للمشترك العام .

فحينما ندرك معنى الإنسانية ، فإن ذلك بتجريدها عن اللون مثلاً ، عن الطول والقصر ، وعن السمنة والنحافة ، ويتبقى بعد هذا التجريد الحيوانية والناطقية وهما القدر المشترك العام بين جميع أفراد الإنسان ، والإنسانية – إذن – قد جردت من كل ما هو محس – لا صورة لها تتمثل في الذهن " (1) .

وإذا كان العقل قادراً على معرفة الله تعالي من غير وحي ، فإنه قادر – كذلك من باب أولي – على معرفته تعالي معرفة كاملة من خلال فهم الوحي –

---

١ – التفكير الفلسفي في الإسلام ص (٨٣) ج ٢ بتصرف من أستاذنا الدكتور عبد الحليم محمود .

يقول أخونا الأستاذ الدكتور "محمود زقزوق" هنا يبرز السؤال عن العلاقة بين العقل والوحي . أي السؤال عن كيفية الوصول إلي معرفة حقيقة الوحي القائم ، وعما إذا كان للعقل دور يستطيع القيام به ، أو أن حقيقة الوحي يجب أن تؤخذ بمعزل عن العقل ، عن طريق اعتقاد مجرد لا مجال فيه للتفكير ؟

" ويجيب الغزالي على ذلك : بأن مهمة العقل هي أن يقود إلي معرفة وجود الله ومعرفة وحيه ، ويرفض هنا – بوضوح – الرأي الخاطئ الذي يذهب إلي أن العقل مجرد المنطق والجدل ، ويبين أن رفض العقل من جانب بعض الصوفية يقوم على هذا الرأي الباطل" (1) .

ولما كان الوحي من الله ، والعقل – كذلك – مخلوق لله ، فإنه – والحال هكذا – يصبح من الطبيعي أن يكون للعقل دوره في فهم الوحي ، وهذا ما أكده الوحي الإلهي ، فهو لا يحجر على العقل ، ولا يلغي دوره في فهم النص ، بل يدع له مجالات رحبة يغوص فيها ويصول ويجول طالما توافرت له شروط الاجتهاد المعقول .

في هذا يقول الشيخ يوسف القرضاوي " إن وجود النص الإلهي المقدس ليس عائقاً للعقل عن التحليق والإبداع ، فقد ترك الوحي للعقل مجالات عديدة يثبت فيها ذاته ، ويبرز قدراته .

لقد ترك للعقل أموراً كثيرة في مجالات متعددة :

أ – ترك للعقل في مجال العقيدة أن يهتدي إلي أعظم حقيقتين في هذا الوجود :

الحقيقة الأولي : وجود الله ووحدانيته – فوجود الله – كما تهدي إليه الفطرة السليمة ، يقتضيه – كذلك – النظر الصحيح والعقل الصريح.

---

١ – المنهج الفلسفي بين الغزالي وديكارت ص (٢٠٠)

الحقيقة الثانية : ثبوت الوحي والنبوة والرسالة ، فالعقل هو الذي يثبت إمكان ذلك . ووقوعه بالفعل ، وأن هذا الشخص المعين رسول من عند الله .

العقل هو الحكم الأول والأخير في هذه القضية ، ولا مدخل هنا للاستدلال بالنقل ونصوص الوحي . إذا كيف يستدل بما لم يثبت بعد .

ولهذا قال علماء الإسلام : العقل أساس النقل ، وذلك أن العقل – بعد اقتناعه بوجوده – تعالي – وكماله سبحانه – يعلم أن من تمام حكمة الحكيم ، ورحمة الرحيم ألا يترك عباده سدي ، وألا يدعهم في لجي من الجهالة والعمي والغي . وهو قادر على أن يهديهم ويخرجهم من الظلمات إلي النور عن طريق مبلغين عنه .

والعقل بعد أن يعلم ذلك لا يسلم لكل من ادعي أنه رسول من الله بل يطالبه بما يثبت صحة دعواه ، وأنه يمثل نفسه ، وإنما يمثل إرادة الله الذي أرسله . فيطالبه بالآية المعجزة التي لا يقدر عليها إلا الله تعالي .

ب – وترك الوحي للعقل في مجال التشريع أن يصول ويجول في فهم النصوص فيفرع على الأصول ، ويقيس على الفروع ، ويستنبط الأحكام ، ويكيف الواقع ويرعي القواعد في جلب المصالح ، ودرء الفاسد ، ورفع الحرج ، وتقدير الضرورات بقدرها ، واعتبار العرف ورعاية الزمان والمكان .

ج – وترك للعقل في ميدان الأخلاق أن يصدر حكمه وفتواه في كثير من الأعمال التي يلتبس فيها الخير بالشر ، ويشتبه الحلال بالحرام ، ولم يغفل شأنه بجانب الوحي كمصدر للإلزام الأدبي ، ومقياس للحكم الخلقي .

د – ثم ترك للعقل بعد ذلك أن يجول في آفاق هذا الكون العريض ما شاء صاعداً إلي الأفلاك ، وهابطاً إلي الأرض ، ومتأملاً في النفس ﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ .

و – وترك للعقل أن يستفيد من تجارب الآخرين ، وينتفع بتراث السابقين ومعارف اللاحقين ، فاعتبروا يا أولي الأبصار ([1]) .

هذا هو العقل ، تلك الهبة الربانية التى بها القدرة على الإدراك والتأمل والتفكير والرشد والحكم ، وكذلك القدرة على إدراك المفاهيم العامة المجردة المنتزعة من الواقع ، أو بعيداً عن الواقع المحسوس فيما وراء المادة على وجه العموم ، والحقيقة الأزلية المطلقة على وجه الخصوص ، الحق تبارك وتعالى : ﴿ الذي له مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.... ﴾ .

ثالثاً : الإدراك الإشراقي

لقد اتضح لنا : أن المعرفة التي نحصل عليها من خلال العقل معرفة كسبية نحصل عليها بالتعليم ، ونصل بها إلي الله تعالي من حيث المبدأ ، وبالجملة على نحو ما أوضحناه من قبل ، ولكن من الناس من لا يقنع بهذا الطريق ، ويطمع في المعرفة المباشرة الكاملة عن طريق الرياضة الروحية ، والمجاهدات النفسية ، فهو تجربة شخصية ، والمعرفة فيه وهبية لا كسبية .

يقول الإمام الغزالي :"الطريق : تقديم المجاهدة ، ومحو الصفات المذمومة ، وقطع العلائق كلها ، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالي ، مهما حصل ذلك كان الله المتولي لقلب عبده والمتكفل له بتنويره بأنوار العلم ، وإذا تولي الله أمر القلب ، فاضت عليه الرحمة ، وأشرق النور في القلب ، وانشرح الصدر ، وانكشف له سر الملكوت ، وانقشع عن وجه القلب حجاب الغرة بلطف الرحمة ، وتلألأت فيه حقائق الأمور الإلهية،فإذا ما حصل ذلك كانت المشاهدة" ([2]) .

هذا هو الطريق الإشراقي البصيري الروحي ينفتح من خلاله الصالحون من عباد الله على الملأ الأعلي فينكشف لهم ما لا ينكشف لغيرهم من عباد الله .

---

١ – الخصائص العامة للإسلام ص (٥٦) وما بعدها باختصار ، د / يوسف القرضاوي – مكتبة وهبه بالقاهرة ، ط ٢ (١٩٨٢ م) .

٢ – المنقذ من الضلال ص (١٦٧) .

وهو طريق المحققين من الصوفية وهم أولياء الله الذين آمنوا ووالوه ، كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية " فأحبوا ما يحب ، وأبغضوا ما يبغض ، ورضوا بما يرضي ، سخطوا بما يسخط ، وأمروا بما أمر ، ونهوا عما نهي ، وأعطوا لمن يجب أن يعطي ، ومنعوا من يجب أن يمنع ، كما في الترمذي وغيره عن النبي (ﷺ) أنه قال : " وأوثق عري الإيمان : الحب في الله والبغض في الله ، وفي حديث آخر رواه أبو داود قال : من أحب لله ، وأبغض لله ، وأعطي لله ، ومنع لله ، فقد استكمل الإيمان " (1) .

إن الطريق الصوفي مقيد بالكتاب والسنة ، كما يقول الجنيد سيد هذه الطائفة " من لم يحفظ القرآن ولم يكتب السنة لا يقتدي به في هذا الأمر ، لأن علمنا مقيد بالكتاب والسنة " (2) .

ومن هنا يتضح أن التصوف الصحيح لا يسقط العقل والعلم والتفكير من الحساب ، وكتب الصوفية الكبار تنطق بذلك وتؤكده وتحث عليه ، يقول أخونا الدكتور محمود زقزوق " إنه عن طريق العقل يمكن استيفاء الشروط الأساسية الثلاثة للحصول على المعرفة الصوفية ، وفي ذلك يقول الغزالي : " اعلم أن العلم اللدني – وهو سريان نور الإلهام – يكون بعد التسوية كما قال الله تعالي : ﴿ ونفس وما سواها ﴾ .

وهذا الرجوع يكون بثلاثة اوجه : –

أحدها : تحصيل جميع العلوم ، وأخذ الأوفر منها .

والثاني : الرياضة الصادقة .

والثالث : التفكير .

" فإن النفس إذا تعلمت وارتاضت بالعلم ، ثم تتفكر في معلوماتها بشروط التفكير ينفتح عليها باب الغيب ... فالمتفكر إذا سلك سبيل الصواب يصير من

---

1 – مجموع الفتاوي ، كتاب التصوف ص (١٦٠) ج ١١ .

2 – الرسالة القشيرية ص (٢٥) .

ذي الألباب وتنفتح روزنة من عالم الغيب في قلبه ، فيصير عالماً كاملاً ملهما مؤيداً " (١) .

المعرفة الإشراقية ممكنة :

إن هذا النوع من المعرفة الإشراقية الروحية ممكن الوقوع ، ويري الإمام الغزالي أن الدليل القاطع الذي لا يقدر أحد على جحده أمران :

أحدهما : عجائب الرؤيا الصادقة ، فإنه ينكشف بها الغيب ، وإذا جاز ذلك في النوم فلا يستحيل أيضا في اليقظة ، فلم يفارق النوم اليقظة إلا في ركود الحواس ، وعدم اشتغالها بالمحسات .

والثاني : إخبار الرسول (ﷺ) عن الغيب وأمور في المستقبل ، وإذا جاز للنبي (ﷺ) جاز لغيره ، إذ النبي عبارة عن شخص كوشف بحقائق الأمور ، وشغل بإصلاح الخلق ، فلا يستحيل أن يكون في الوجود شخص مكاشف ولا يشغل بإصلاح الخلق ، وهذا لا يسمي نبياً بل يسمي ولياً .

فمن آمن بالأنبياء ، وصدق بالرؤيا الصحيحة لزمه – لا محالة ان يقر بالبصيرة ، أو بتعبير آخر أن يقر بباب القلب ينفتح على عالم الملكوت ، هو باب الإلهام ، والنفث في الروح والوحي .

ويؤكد الإمام الغزالي ذلك بشواهد الشرع من القرآن الكريم مثل قوله تعالي : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ قيل نوراً يفرق بين الحق والباطل ، ومن السنة قوله (ﷺ) : " من عمل بما علم ، ورثه الله علم ما لم يعلم " وسئل (ﷺ) عن قوله تعالي : ﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾ ما هذا الشرح ؟ فقال : هو التوسعة : إن النور إذا قذف به

١ – المنهج الفلسفي بين الغزالي وديكارت ، ص (١٩٤) .

إلي القلب ، اتسع له الصدر وانشرح ... وقال عليه الصلاة والسلام : " إن من أمتي محدثين ، ومعلمين ومكلمين وإن عمر منهم " (١) .

ويؤيد هذا أيضاً قوله تعالي : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة : ٢٨٢ ، مدنية) .

وكذلك قصة العبد الصالح مع موسى عليه السلام وفيها قوله تعالي : ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ (الكهف : ٦٥ ، مكية) .

هذا هو العلم اللدني ، وهذا هو طريقه ، وتلك غايته التى يعبر عنها الغزالي بقوله : " ولم يكن ذلك بنظم دليل ولا ترتيب كلام ، بل بنور يقذفه الله تعالي في الصدر ، وذلك النور هو مفتاح اكثر المعارف ، فمن ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المحررة ، فقد ضيق رحمة الله الواسعة : (٢) .

الوحي الإلهي

لقد انكشف لنا – مما سبق – أن المعرفة بالله عن طريق العقل ناقصة فهو يصل إليها من حيث المبدأ وبالجملة وليس بالتفصيل ، كما أن المعرفة الإشراقية تجربة شخصية ، لا يقدر عليها سوي الصالحين من عباد الله رب العالمين .

ولهذا ولغيره ، اقتضت حكمة الله تعالي أن يكشف للإنسان عن المنهج القويم ، المعصوم من الخطأ ، والذي يهدي – بحق – إلي التى هي أقوم في الدنيا والآخرة .

من هنا كانت الرسالات الإلهية ، والوحي الإلهي ، ومسك الختام في القرآن الكريم ، تنزيل من رب العالمين ، ولا ريب فيه هدي للمتقين.

---

١ – الإحياء ج ٣ ص (٣) وما بعدها .

٢ – المنقذ من الضلال ص (٨٥) .

وفي السنن للدرامي – كتاب فضائل القرآن – عن علي كرم الله وجهه قال : إني سمعت رسول الله (ﷺ) يقول : " ستكون فتن ، قلت : ما المخرج منها ؟ قال : كتاب الله ، فيه نبأ ما قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، هو الذي من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغي الهدي في غيره أضله الله ، فهو حبل الله المتين وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضي عجائبه ، وهو الذي لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا : ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴾ هو الذي من قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن عمل به أجر ، ومن دعا إليه هدي إلي صراط مستقيم " (١)

لقد جاء القرآن الكريم بالمعرفة الربانية الكاملة لكل ما ينبغي على الإنسان أن يعرفه حق المعرفة ، فبالله وفي الإنسان ، وفي الكون والحياة.

إن الحديث عن القرآن لا ينتهي ، ولا يخلق عن كثرة الرد والنظر ، ولا تنقضي عجائبه .

بين الوحي والعقل :

وحسبنا في هذا المجال ، مجال المعرفة أن نشير إلي مدي احترام الوحي للعقل الإنساني – فالعقل من الله ، والوحي من الله ، ومن هنا لا يتعارض العقل الصريح والوحي الصحيح في شيء ، وإذا ما ظن امرؤ أن هناك تعرضاً بين العقل والوحي ، فإن ذلك يرجع إلي تقصير في الفهم ، أو جهل في التعامل مع الوحي .

إن علماءنا أدركوا هذه الحقيقة ، ونبهوا عليها ومن ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية ، الذي وضع كتاباً كبيراً في ذلك بعنوان : درء تعارض العقل مع النقل " أو موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول " .

---

١ – سنن الدرامي ص (٨٣١) ج ١٩ من كتب السنة .

ويقول الإمام الغزالي في العلاقة بين العقل والشرع إنها " علاقة الأساس بالبناء – فالعقل أساس ، والشرع بناء ، ولن يغني أساس ما لم يكن بناء ، ولن يثبت بناء بغير أساس ، وقصارى أمر العقل أن يعرف الأمور الكلية كحسن الصدق ، والعفة ، والعدل . وغير ذلك " بل يذهب الغزالي إلي أكثر من ذلك فيقول : " الشرع عقل من خارج ، والعقل شرع من داخل ، هما متعاضدان بل متحدان " (١) .

وعلى ضوء هذا يقرر الإمام : أنه لا غني بالعقل عن السماع ، ولا غني بالسماع عن العقل،فالداعي إلي محض التقليد مع عزل العقل بالكلية جاهل ، والمكتفي بمجرد العقل دون أنوار الشرع والسنة مغرور (٢) .

وفي رسالة التوحيد للإمام محمد عبده يقول : " تآخى العقل والدين لأول مرة في كتاب مقدس على لسان نبي مرسل بتصريح لا يقبل التأويل" .

وتقرر بين المسلمين كافة – إلا من لا ثقة بعقلة ولا بدينه ، أن متن قضايا الدين ما لا يمكن الاعتقاد به إلا عن طريق العقل ، كالعلم بوجود الله . وبقدرته على إرسال الرسل ، وعلمه بما يوحي به إليهم ، وإرادته لاختصاصهم برسالته ، وما يتبع ذلك مما يتوقف عليه فهم معني الرسالة وكالتصديق بالرسالة نفسها .

كما أجمعوا على : أن الدين إن جاء بشيء قد يعلو على الفهم ، فلا يمكن أن يأتي بما يستحيل عند العقل " (٣) .

يتضح من هذه كله مدي التطابق بين العقل والوحي ، ولكن ما هي المبادئ التي يقوم عليها هذا التطابق ؟

---

١ – معارج القدس ص (٦٠) ، طبعة الكردي .

٢ – المرجع السابق .

٣ – رسالة التوحيد ص (٤٥) دار إحياء العلوم ، بيروت ط ٥ سنة ١٩٨٥ .

في هذا المجال يحدثنا كتاب "إسلامية المعرفة" فيقول : " هذا التطابق المنطقي بين العقل والحقائق المطلقة والواقعية ، وما يأتي به الوحي ، هو أخطر مبدأ عرفته نظرية المعرفة ، هذا التطابق قائم على ثلاثة مبادئ ترتكز عليها المعرفة الإسلامية كلها :

الأول : أن وحدة الحقيقة المطلقة تفرض أنه لا يوجد تعارض بين الحقائق الواقعية ، وما يأتي به الوحي ، فكل ما يقرره الوحي لا بد أن يكون منسجماً مع الواقع موافقاً له ...

الثاني : أن وحدة الحقيقة المطلقة تفرض أنه لا يوجد تعارض أو خلاف أو تفاوت مطلق بين العقل والوحي ...

الثالث : أن وحدة الحقيقة المطلقة تفرض أن باب النظر والبحث في طبيعة الخلق في أي جزئية منه لا يمكن أن تغلق ، وذلك لأن سنن الله في خلقه غير محدودة ، فمهما عرفنا منها ، ومهما تعمقنا في هذه المعرفة فلا يزال هناك المزيد منها ليكتشف ويسخر ... " (١)

ومن هنا كانت عناية القرآن بتوجيه العقل بالتأمل والتدبير في كلماته الربانية الكريمة ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ (سورة ص : ٢٩ ، مكية) .

---

١ – إسلامية المعرفة ص (٩١) وما بعدها ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، ١٩٨٦ م

المصدر الأعلى للمعرفة

الآن نستطيع القول : بأن المعرفة العليا تتمثل فيما يأتي :-

أولاً : **العقل** : تلك الملكة الربانية التى تقدر بها على الإدراك والتأمل والتفكير وغير ذلك ، من العمليات العقلية الأخري ، وكذلك القواعد العقلية المسلمة ، كقانون التناقض والتضاد وبطلان الدور والتسلسل ... وهكذا ...

ثانياً : **البصيرة** : وذلك فيما تتمتع به من إلهام ، ورؤيا صادقة ، وكشف رباني للصالحين من عباد الله .

إن المعرفة التى نحصل عليها من خلال العقل ناقصة لانها من حيث المبدأ وبالجملة . وليس فيها التفصيل المطلوب الذي يحقق المعرفة الكاملة .

وأما المعرفة المستفادة من البصيرة فهي تستفاد بالتجربة الشخصية ، ولا يستطيعها كل إنسان بل صفوة الصفوة من الناس .

من هنا اقتضت حكمة الله تعالي – العلي القدير ، العليم الخبير ، اللطيف الرحيم – أن يرسل للناس أنبياء ورسل هداة ومعلمين ، مبشرين ﴿ **إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا * وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا * رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا** ﴾ (سورة النساء : ١٦٣ – ١٦٥) .

إن هذا الوحي الإلهي ، قد جاء بالمعرفة العليا الكاملة والواضحة بما يحقق الغاية القصوي منها . وبهذا يمكن للإنسان القيام بمسئوليته ورسالته في الحياة حسب جهده وطاقته وظروف حياته .

إن هذا الوحي الإلهي يؤكد – بما لا يدع مجالاً للشك – أن الله – تبارك وتعالي – هو المصدر الأعلى للمعرفة ، أو هو مصدر المصادر ، الذي ليس بعده مصدر آخر بلغ حد الكمال ، فالكمال لله وحده .

تلك حقيقة مؤكدة ، لا ينقص من قدرها إنكار منكر ، أو جحود معاند ومكابر ، كيف : وهو الخلاق العليم ، العلي الحكيم ، وعلى كل شيء قدير ، وبكل شيء محيط .

﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ (سورة الأنعام : ٥٩ ، مكية) والنتيجة : أن الخلق من الله ، والعلم من الله **﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾** (سورة البقرة : ٢٨٢) .

ضوابط ومحاذير

إن المعرفة في التصور الإسلامي لا تقبل هكذا دون قيد أو شرط بل تحتاج إلي ضوابط تضبطها لكي يقبلها العقل ، ويطمئن إليها القلب ، وتستريح إليها النفس ، خاصة إذا كانت تلك المعرفة متعلقة بالحقيقة الأزلية المطلقة ، فتصبح عقيدة . تنعقد في القلب ، وترسخ فيه بيقين ، لأن العقيدة لا تبني إلا على يقين . وتلك هي الضوابط والمحاذير .

أولاً الضوابط : ومن أهمها ما يلي :-

١ – التفكير الهادئ .

إن أولي الخطوات إلي اليقين ، تبدأ بالتفكير الهادئ الرصين ، ومحاولة إبعاد شتي المؤثرات الداخلية والخارجية ، وفي هذا قوله تعالي : **﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ﴾** (سورة سبأ : ٤٦ ، مكية) .

٢ – البرهان :

هذا التفكير الهادئ يؤدي إلي نتيجة طيبة ، تلك النتيجة لكي تكون مؤكدة بيقين فإنها تحتاج إلي دليل .

والقرآن الكريم يستعمل كلمة " البرهان " في مجال العقيدة لأن البرهان سيد الأدلة ، وأقوي حجة من كل دليل " .

﴿ وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (سورة البقرة : ١١١ ، مدنية) .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً ﴾ (سورة النساء : ١٧٤ ، مدنية) .

﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي ﴾ (سورة الأنبياء : ٢٤ ، مكية) .

﴿ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (سورة النمل : ٦٤ ، مكية) .

﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ (سورة المؤمنون : ١١٧ ، مكية) .

نخلص من هذه الآيات وأمثالها إلي أمرين :–

الأمر الأول : أن الدعوى لا تقبل إلا بدليل ، ولا ترفض – كذلك إلا بدليل

الأمر الثاني : أن العقيدة بصفة خاصة لا تبنى إلا على يقين – كما قلنا – ومن ثم لابد أن تؤكد بالبرهان ، الذي هو سيد الأدلة .

إن استعمال القرآن للبرهان يؤكد ذلك فهو " أسمي صور الاستدلال ، لأنه يقوم على أساس من مقدمات يقينية ، وينتهي تبعاً لذلك إلي نتائج يقينية ، وأوضح

صوره البرهنة الرياضية " أما الدليل " فقد يكون مجرد أمارة أو ظاهرة معينة ، أو شهادة شاهد ، أو ضرباً من الاستدلال المنطقي " (١) .

٢ – العلم :

وإذا كان البرهان سيد الأدلة ، والأقوي حجة ، فإنه لا يكون إلا بعلم ، ولا يتحقق عن جهل من هنا كانت عناية الإسلام بالعلم ، وفرض تعلمه على كل مسلم ومسلمة ﴿ **هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ** ﴾ (سورة الزمر : ٩ ، مكية) .

﴿ **شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ** ﴾ (سورة آل عمران : ١٨ ، مدنية) .

﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ** ﴾ (سورة فاطر : ٢٨ ، مكية) .

والعلم في الإسلام مطلق في كل المجالات ، لا تحده حدوده طالما كان علماً نافعاً للإنسان والحياة ، وفي هذا دفع قوى للعقل أن يجد ويجتهد فيبتكر من العلوم ما يشاء ﴿ **وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ** ﴾ .

وإذا كان العلم يشرف موضعه فإن أشرف العلوم هي العلوم الدينية ، وأعظمها قدراً وشرفاً على الإطلاق : علم العقيدة ، حيث معرفة الله تعالي ، وما يليق بذاته القدسية من صفات الجلال والكمال ... الخ .. وكذلك الدفاع عن هذه العقيدة والتصدي للهجمات الشرسة من قبل الماديين الملحدين ومن على شاكلتهم من المتمردين .

---

١ – المعجم الفلسفي ص (٣٣ – ٨٤) .

من هنا كانت العلوم عندنا نوعين : نوع هو عين ، على كل فرد من المسلمين وذلك هو العلم بالحلال والحرام بالقدر الذي يمكن المسلم من معرفة عقيدته ، وعباداته ومعاملاته وأخلاقه ... الخ .

أما النوع الآخر فهو العلم بدقائق العلوم على مستوي التخصص وذلك فرض كفاية . والأمة في مجموعها مكلفة بأن تخصص طائفة من أبنائها لكل فرع من فروع العلم الذي تحتاج إليه في حياتها ، كالطب والزراعة والهندسة والكيمياء .. والتشريح ... الخ .

وإذا ما تحقق لأمة الإسلام الوفاء بهذه العلوم فإنها – بلا شك تقيم حضارة إنسانية كريمة تقوم على العلوم والعمل .

من هنا يتبين مدي حرص الإسلام على العلوم ، لأنه لا إسلام بغير علم والعلم عندنا دين منطلقه الإيمان بالله ، وغايته القصوى معرفة الله ورضاه .

٤ – ومن ضوابط المعرفة موافقتها للمعقول والمنقول : أي موافقة العقل الصريح للنص الشرعي الصحيح ، ليس في نتائجها فحسب ، ولكن في وسائلها أيضاً حيث أن الغاية لا تبرر الوسيلة في الإسلام .وسيأتي بيان وتوضيح لهذا الموضوع في حديثنا عن " التطابق بين الوحي والعقل " إن شاء الله .

٥ – ومن الضوابط أيضاً : التطابق بين الحقائق العلمية والحقائق الكونية ، والمعتقدات الإيمانية ، لأن المصدر الأول لكل هذه الحقائق واحد ، هو الله تعالى ، ومن ثم لا يعقل ولا يقبل التعارض بينها .

تلك هي أهم الضوابط التى نراها ضمانات حتمية من أجل الوصول إلي معرفة يقينية .

ثانياً : المحاذير :

وعلي ضوء هذه الضوابط تتضح المحاذير التي ينبغي الابتعاد عنها ، حتي لا نقع في خلط أو تشويش ، أو تشويه ، ومن أهم هذه المحاذير ما يلي : -

١ – التحرر من سيطرة الأهواء ، الأغراض :

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى * أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى * إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى ﴾ (النجم : ١٩ – ٢٣) .

﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (القصص : ٥٠ ، مكية) .

﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ ﴾ (الجاثية : ٢٣ ، مكية) .

٢ – التحرر من الجهل في الاعتقاد :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ﴾ (الحج : ٣ ، مدنية .

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴾ (الحج : ٨ ، مدنية .

﴿ قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ﴾ (الأنعام : ١٤٨ ، مكية)

٣ – التحرر من المعتقدات السيئة الموروثة ، والتقاليد المذمومة :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ ﴾ (البقرة : ١٧٠ ، مدنية) .

﴿ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ {٢٣} قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴾ (الزخرف : ٢٣ - ٢٤ ، مكية) .

﴿ قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (الأعراف : ٧٠ ، مكية) .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِه عَالِمِينَ {٥١} إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ} ٥٢ {قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴾ (الأنبياء : ٥١ - ٥٣ ، مكية) .

﴿ وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا وَاللّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ (الأعراف : ٢٨ ، مكية) .

٤ – التحرر من الظنون والأوهام :

﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إَنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ (يونس : ٣٦ ، مكية) .

﴿ وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ (النجم : ٢٨ ، مكية) .

﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم حَتَّى ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إَلاَّ تَخْرُصُونَ ﴾ (الأنعام : ١٤٨ ، مكية) .

﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾ (الجاثية : ٣٢ ، مكية)

٥ – التحرر من العناد والمكابرة :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ (البقرة : ٣٤ ، مدنية) .

﴿ أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ ﴾ (البقرة : ٣٤ ، مدنية) .

﴿ فَلَمَّا جَاءهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا * اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ (فاطر : ٤٢ – ٤٣ ، مكية) .

﴿ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُ وَاتَّبَعُواْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ (هود : ٥٩ ، مكية) .

﴿كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا﴾ (المدثر : ١٦ ، مكية) .

٦ – عدم كتمان العلم :

فمن سئل عن علم فكتمه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة ، يقول الحق تبارك وتعالى :﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة : ١٤٦ ، مدنية) .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَـئِكَ يَلعَنُهُمُ اللّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ * إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَـئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (البقرة : ١٥٩ – ١٦٠ ، مدنية) .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُولَـئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (البقرة : ١٧٤ ، مدنية) .

٧ – التحرر من سيطرة المتكبرين الجبارين :

﴿ وَبَرَزُواْ لِلّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاء لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ (إبراهيم : ٢١ ، مكية).

﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾ (سبأ : ٣١ ، مكية) .

٨ – التحرر من سيطرة الحكام الجاحدين الذين كفروا بالله ورسوله ، ويصدون عن سبيله .... فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَن آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَـذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ (الأعراف : ١٢٣ ، مكية) .

﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا * رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾ (الأحزاب : ٦٧ – ٦٨ ، مدنية) .

٩ – التحرر من سيطرة الوساوس الشيطانية :

﴿ يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأعراف : ٢٧، مدنية) .

﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ

تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي إني كفرت بما أشركتمون من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم ﴾ (إبراهيم : ٢٢ ، مكية) .

﴿ استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون ﴾ (المجادلة : ١٩ ، مدنية) .

١٠ – التحرر من سيطرة الوالدين الذين يصدون عن سبيل الله . مع حسن معاملتها .

﴿ وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب إلي ثم إلي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون ﴾ (لقمان : ١٥ ، مدنية) .

تلك هي ضوابط المعرفة ، وهذه محاذيرها ، وهي ترعي المعرفة من كل خلط أو تشويش أو تشويه حتى تحصلها نقية خالصة من كل سوء . وقد استقيناها من الوحي المعصوم ، فإنه أصدق الحديث ، ومن أصدق من الله حديثاً ؟ ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾ (فصلت : ٤٢ ، مكية) .

بعد هذا ، ترى ما هي الخصائص التي تتميز بها تلك المعرفة ؟

خصائص المعرفة

إن المعرفة بالله تعالي معرفة من نوع خاص بل هي أخص المعارف على الإطلاق ، ولهذا فإنها تتميز بميزات خاصة ، وخصائص معينة لا تليق بغيرها من المعارف ، وعلى ضوء ما توصلنا إليه من نتائج خلال رحلة البحث نستطيع – بتوفيق الله تعالي – أن نقف على تلك الخصائص ، وأهمها – فيما نري – ما يلي : –

أولاً : اليقين المطلق :

إن اليقين المطلق سمة تلك المعرفة بكل الدلائل والبراهين التى لا ينهض على نقضها دليل محترم ، فإنها ببراهين حسية ، وعقلية ، ووجدانية . ولغوية ... الخ .. وإن كانت في الواقع لا تحتاج إلي دليل فوق كل دليل ، فهي منطق الفطرة في نفس كل فرد ، وهي النور المطلق الذي يضيء الكون كله بل الملك والملكوت " نور على نور " .

بيد أن بعض الأدمغة – لسبب أو لآخر – غشي على أبصارهم وبصائرها فلم تقو على الرؤية الصحيحة بنور العقل أو القلب ، ولمثل هؤلاء يحتاج المقام إلي دليل .

﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ ﴾ (لقمان:١١ ، مدنية)

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (الأحقاف : ٤ ، مكية) .

﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ (الطور : ٣٥ ، مكية)

هذه بعض آيات التحدي المطلق ، بدلالة الخلق على الخالق ، وأن الخالق هو الله . كما أن من أسمائه الحسنى " الخالق " الذي لا يقدر على الخلق سواه .

وفي هذه الآيات إشارات إلي أقوي الأدلة في الإقناع والإلزام وإفحام الخصم .

ففيها : التحدي بالمشاهدة ، مما يعني : الزام الواقع المحسوس .
وفيها : كذلك – تحدي الخصم بأن يثبت دعواه بالواقع أيضاً .
وفيها : السببية التى يزعم الماديون أنهم مكتشفوا قانونها..وهكذا...

وأخيراً : نقول : إن أحداً من المنكرين – مهما كان شأنه في الفكر والتنظير – لم يستطع حتى الآن أن يقدم دليلاً واحداً محترماً يقبله العقلاء فضلاً عن أولي الألباب . إن هذا لم يكن ولن يكون .

وأما ما يزعمه هؤلاء باسم العقل فهو غثاء ، وهراء والعقل الصحيح منه براء . فلا قيمة له في رحاب العلم ، ومحافل العلماء .

ثانياً : التجرد المطلق :

هذه هي الخصيصة الثانية ، ويعني أن هذه المعرفة مجردة تجريداً مطلقاً عن المادة لأن المادة محسوسة ، ومتمثلة في الواقع ، ثم هي مخلوقة لله ، مسخرة له ، والضرورة العقلية تقتضي المغايرة بين السبب والمسبب ، والمادة هي المسبب بدليل ما يلحقها من تغيرات : وجوداً . وعدماً ، حركة وسكوناً ، اجتماعاً وافتراقاً ، ولا يعقل أن تكون تلك التغيرات من ذاتها وبذاتها فهذا باطل على نحو ما أوضحنا سابقاً في موضعه .

ثالثاً : الحقيقة الأزلية المطلقة :

هذه الخصيصة الثالثة : إنها الحقيقة الأزلية الخالدة بل حقيقة الحقائق بإطلاق . التى يستمد منها كل موجود وجوده ، فلا تحدها حدود ، ولا تقف دونها سدود ، فكل الحقائق مستمدة منها بطريق مباشر أو غير مباشر ، غير أنها في النهاية ترجع إليها ، ومن ثم لا يمكن أن تتعارض معها ، أو تختلف عنها ، فإن تعرضت سقطت من الحساب ولا ترقي إلي مستوي الحقيقة .

رابعاً : الوحدانية المطلقة :

هذه هي الخصيصة الرابعة : إنها الوحدانية المطلقة . وذلك أن الحقيقة المطلقة واحدة على التحقيق ، وما عداها ، فإنه يتصف بالإطلاق تجوزاً لأنه يستمد إطلاقه من الله ، أو من العقل الذي هو هبة من الله ، ويعمل بقدرة الله . إن هذه الوحدانية تقتضي بالضرورة ، الوحدة في الذات والصفات والأفعال . وعدم المماثلة أو المشابهة لا شيء آخر ، لأن كل شيء آخر إنما يستمد وجوده منه سبحانه وتعالي ، والضرورة تقتضي المغايرة بين السبب والمسبب كما قلنا .

خامساً : أنها مقتضى الفطرة :

بل أهم مقوماتها الذاتية ، ولوازمها النفسية ، ومن هنا كانت الفطرة أهم الدوافع في البحث عنها ، والتعرف عليها ، فإذا ما حصل عليها تلاقت الفطرتان ، فطرة الله في الإيمان ، وفطرته في خلق الإنسان .

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الروم: ٣٠ ، مكية)

سادساً : أنها مقتضى العقل :

إذ العقل بطبيعته ملكة البحث والاستقصاء ، ومن ثم لا يمل ولا يكل ولا يقر له قرار ، وراء البحث عن هذه التساؤلات : من أين ؟ وإلي أين ، وكيف ؟ ولماذا ؟ وقد تحقق له ما أراد ، ولكن من حيث المبدأ وبالجملة . وما يزال يطمع في التفصيل – فكانت محاولات وجولات ، أخفق فيها جميعها عبر التاريخ ، فكانت معرفته ناقصة ، ولا ترقي إلي الكمال المنشود ، ومن هنا تجلت قدرة الله تعالي ، بالوحي فجاءت المعرفة العليا تامة فلا ينقص منها ، وكاملة فلا يزاد عليها ، هنا اطمئن العقل ، فقد جاء الوحي الإلهي الصحيح بما يوافق العقل الصريح ، على نحو ما بيناه في موضعه من هذا البحث .

نتائج وآثار

إن الآثار المستفادة من معرفة الله - تبارك وتعالي - في وحيه الكريم - قرآناً وسنة - تنعكس على الإنسان في مجالين هما : -

المجال الأول : تحصيل المعرفة :

ذلك أن مهمة الوحي الإلهي ، هداية البشرية إلي الله رب العالمين ومن هنا اقتضت حكمته تعالي أن يهدي للتي هي أقوم في شتي المجالات : ﴿ إِنَّ هَـٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ (الإسراء : ٩ ، مكية) .

ومن هذا المنطلق فإنه يهدي الإنسان إلي التى هي أقوم في عقيدته وعبادته ومعاملاته ، وأخلاقه وسلوكه .

ومن هذا المنطلق - أيضاً - يهدي الإنسان للتي هي أقوم في بناء ذاته ، وتدعيم كيان المجتمع في بنائه .

ومن هذا المنطلق - كذلك - يهدي للتي هي أقوم في بناء مجتمع إنساني عالمي يقوم على الوحدة الإنسانية ، ويحوطه الأمن والأمان ، والطمأنينة والسلام

ومن هذا المنطلق يهدي للتي هي أقوم في مجال هذا الكون الرحب ، حيث يصول ويجول في مختلف جنباته . وشتي مجالاته .

ومن هنا حينما يتحدث القرآن عن الطبيعة ومظاهرها فإنه يحقق أمرين :

أولهما : التعرف على مظاهر القدرة الإلهية ، وشواهد العظمة الربانية في هذا الوجود .

ثانيهما : دفع العقل إلي البحث والتنقيب فيما وراء هذه المظاهر الطبيعية فيستنبط ما يستطيع من المعارف والعلوم .

مثلاً : حديث القرآن عن الإنسان ومراحل تكوينه يدفع إلي علم الأجنة ، وكذلك الحديث عن الكائنات الحية يدفع إلي علم الأحياء .

وكذلك توجيه النظر إلي الأمم الغابرة يدفع إلي علم التاريخ مرآة الأمم ووعاء العلوم .

وكذلك حديث القرآن عن النبات يدفع إلي علوم الزراعة والنبات وكذلك حديث القرآن عن الفكر وضوابطه وأهدافه يدفع إلي الفلسفة والبحث عن حقائق الأشياء بعللها بهدف التعرف على القدرة الخلاقة المبدعة ... وهكذا ..وهكذا .

ليس معني هذا أن القرآن مؤلف من علم من العلوم ، فهو ليس كتاباً في الطب ولا في الطبيعة والكيمياء ، والنبات ... الخ .

المجال الثاني : توظيف العلوم وأسلمه المعارف :

ونعني بذلك توظيف المعارف والعلوم بحسب طبيعتها لتحقيق الغاية منها فتكون نافعة ومفيدة للإنسان والحياة . وليس ذلك فقط وإنما توظيف بحسب ارتباط مظاهرها ونتائجها بقدرة الله ، وخدمة العقيدة الربانية السليمة .

إن هذا هو ما تهدف إليه إسلامية المعرفة ، أو أسلمة العلوم ، وهنا قد يستشكل الأمر ويلتبس على بعض الناس ، وخاصة في مجال العلوم الطبيعية ، فيعني بذلك أن تكون هناك كيمياء إسلامية ، وبيولوجيا إسلامية ، وفسيولوجيا إسلامية ... وهكذا ...

علماً بأنه من المعلوم : أن هذه العلوم وغيرها من العلوم الطبيعية لا وطن لها ، ولا جنس لها ، ولا دين لها ، وإنما هي ملك للبشرية جميعاً ، وكل أمة تضيف إليها بالقدر الذي تستطيع من نظريات وأبحاث .

ولكنا نقول : إن مظاهر الطبيعة في شتي مجالاتها إنما هي دلائل شاهدة على قدرة الخالق سبحانه وتعالي : وإذا كان هذا حالها في ظاهر أمرها فإنها في مخبرها وما تحويه باطنها لأدل على ذلك بكثير وكثير .. فإن عالم البيولوجيا

يري في تركيب الكائنات الحية خاصة الخلية الأولي منها ما لا يراه الآخرون ... وقس على ذلك سائر العلوم الطبيعية .

إذن الذي نعنيه : إنما هو توظيف العلوم توظيفاً إسلامياً ، وتوجيهها الوجهة الإيمانية بالإضافة إلي وظيفتها الطبيعية في الحياة .

ولنضرب على ذلك مثالين :

المثال الأول : ظاهري في مجري الحياة العادية . وذلك عندما يكتب الطبيب المؤمن وصفة العلاج للمريض فإنه يقول : هذه إمكاناتنا ولنأخذ بالأسباب ولكن الشفاء من عند الله .

هذه المقولة تعكس أمرين :-

١ – حقيقة إيمانية تؤكد الحقائق الكونية وهي أن الله تعالي سبب الأسباب والمسببات ، وأن الأسباب لا تفعل بذاتها بعيداً عن قدرة الله تعالي .

٢ – تؤثر تأثيراً مباشراً وقوياً وإيجابياً في حال المريض النفسية مما يساعد على الشفاء ، والرضا بقضاء الله .

المثال الثاني : عالم الطبيعة في مختبره يري ما لا يراه الآخرون فإذا كان مؤمناً أدرك بحق مظاهر القدرة الإلهية وكيف تتصرف في عناصر الطبيعة وخصائصها على حد سواء ، ومن ثم يدرك تماماً أن الأسباب المادية لا تفعل بذاتها وأن خواص المادة ليست ذاتية فيها ، فهذا ما أكدته الفيزياء الحديثة .

ثم إن هذا العالم ينقل هذه الأفكار إلي تلاميذه فيزيدهم إيماناً إن كانوا مؤمنين ، أو يدفعهم إلي الإيمان إن كانوا غير مؤمنين .

إن هذا الذي نقوله ، قد أكدته تجارب العلماء خاصة أولئك الذين لم يعرفوا الإيمان بالله إلا عن هذا الطريق ، وهم كثيرون والحمد لله .

يبقي بعد ذلك الخطوة الأولي والأساسية في تربية الدارسين على ذلك المنهج القويم.وهذا إنما يكون بدراسة مادة "الثقافة الإسلامية" إجباريا وفي جميع سنوات الدراسة بالكليات العلمية على وجه الخصوص .

وليس مجرد تدريس الثقافة الإسلامية كاف لتحقيق الهدف الذي نريد – وإنما تبرزها ضرورة المنهج وتوصيف المقررات بحيث يتناسب مع طبيعة التخصص في هذه المجالات :

وعلى سبيل المثال : طالب الزراعة ، يركز له المنهج بصفة حول علوم النبات والجيولوجيا مع ضرب الأمثلة التوضيحية لآخر ما انتهي إليه العلم فيها ، وطالب الطبيعة والكيمياء والبيولوجيا .. وغيرها .. ويركز المنهج حول خواص المادة إسلامياً مع ضرب الأمثلة بالحقائق العلمية التي انتهي إليها العلم في هذه العلوم ، وهكذا .....

في هذه الحال يجد الطالب نفسه يعيش واقعة الدراسي بما يؤكد التكامل والتلاحم بين الثقافة الإسلامية وغيرها من العلوم الطبيعية .

إنني أقول هذا نتيجة خبرة شيقة وممتعه عشتها سنوات غير قليلة في تدريس لأمثال هؤلاء سواء في تدريس الثقافة الإسلامية أو المذاهب الفكرية المعاصرة .

وقد تأكد لدي أن طلاب الكليات العملية يتميزون عن غيرهم من الطلاب سواء في الإقبال على هذه المقررات ، وسواء في سير الدراسة والتجارب والتفاعل الملموس ، وسواء في نتائج الامتحان ...

تلك هي ثمار المعرفة بالله تبارك وتعالي بالقدر الذي نراه في هذا المجال ، وحسبما يسمح به المقام ، وبالله التوفيق ...

الكلمة الأخيرة

هذه هي كلمتنا في هذا البحث المتواضع بعد رحلة شيقة اقتضتها منهجية البحث : حيث انطلق من باطن الإنسان ودوافعه الذاتية التى تدفعه دفعاً نحو البحث عن المعرفة العليا ، والحقيقة الأزلية الخالدة ، كما تحيط به دوافع خارجية لا يستطيع أن يغض الطرف عنها .

ومن هنا انطلق بفطرته وعقله وبصيرته يشق طريقه هنا وهناك بحثاً عن الحقيقة حتى تمكن من الوصول إليها عبر رحلة شاقة مضنية . وتبقي النتيجة آنئذ من حيث المبدأ لا بالجملة والتفصيل . وإن هو حاول اقتحام التفصيلات هوي وضل ، فلا أحد في الوجود يستطيع أن يعرفنا بالله ذاته وصفاته غير الله تعالي بنفسه عن طريق الوحي المعصوم ، بمقتضى حكمته ورحمته ، حتى يمكن الإنسان من أداء رسالته والقيام بمسئولياته ، فيكون بحق أهلاً للتكليف والمسئولية والجزاء .

وقد حاول البحث أن يستنبط الضوابط الكفيلة بضبط تلك المعرفة لأنها تتعلق بالعقائد وهي لا تبني إلا على يقين .

وبعد هذا حاول أن يتعرف على الخصائص المميزة لها فكان له ما أراد بفضل الله تعالي ، وما دمنا نتكلم عن المعرفة في التصور الإسلامي ، فإنه يصبح من الطبيعي أن تكون رحلتنا هذه على ضوء القرآن الكريم كتاب الله السماوي الوحيد الذي صحت نسبته الآن على وجه الأرض .

وأخيراً يتوقف البحث عند الحصاد فيجني ثماره ونتائجه التى هي لازمة له على التحقيق .

ولما كان الأمر يتعلق بالمعرفة من ثم كان التركيز على الجوانب المعرفية المستفادة من المعرفة بالله تعالي خاصة .

وكان وقفة خاصة عندما نسمه " أسلمة العلوم والمعارف "

كيف تكون العلوم الطبيعية خاصة إسلامية ، فتوظف إسلامياً بالإضافة إلى أهدافها الطبيعية ؟

كيف توظف تلك العلوم إسلامياً مع أنها لا وطن لها ولا جنس ولا دين ؟

هذا ما يجيب عليه البحث .... وبالله التوفيق ،،،،